

الباب الرابع

دور الفن في التفسير الثقافي

لقد ذكر الكثير عن أصل الفن وعن دوره في التاريخ - ولقد كانت الفنون منذ نشأت تعبيراً اجتماعياً عن أوضاع المجتمعات المختلفة في شتى العصور كما كانت تعبيراً اجالياً بما حملته من قواعد وأصول فنية • فكل الفنون تتأثر بالبيئة المحيطة وبأوضاع المجتمع • وكلها تصدر عن احساس ووجدان وتجربة انسانية أو اجتماعية وكلها تعبر عن الحياة والحركة والمشاعر الانسانية • وقد اهتم علم الاجتماع بدراسة تطور الظواهر والنظم الاجتماعية الذي كان يرى انها أهم مسائل علم الاجتماع (دوركايم) - ولما كان الفن ظاهرة اجتماعية من مظاهر المجتمع ومتداخل مع سائر النظم الاجتماعية فهو يخضع لنفس القوانين التي يخضع لها المجتمع • والفن في النهاية يخضع الى التطور التاريخي المحدد بتطور المجتمع نفسه وتطور الانسانية ، فان الشعوب والعصور هي التي تكون للفنان مادته ولكنه هو الذي يعطيها الشكل الفني • واذا مررنا بين الاتجاهات العامة التي درست من قبل وبين التحقيقات الخاصة التي تشمل الاعمال الفنية انخاصة بمختلف العبقريات كذلك بين سوسيولوجية الفن ، والتحليل النفسي للفنان نواجه هذا السؤال كيف أمكن مع تلك المواهب والوسائل الشخصية لهذا الكاتب أو الرسام أو الموسيقى ان يظهر رغبات عصره ؟

فالموهبة هي الطبيعة ، والوسيلة هي الفن ، ولكن الموهبة لم تكن الا شرط للفن وقد تنتقل العبقرية الى ابداع فنى ومن هناك كان دور كبار العباقر في الفن • وكل فرد من هؤلاء الافراد قد تخصص في وظيفة فنية • وبهذا يساهم طبقاً للقانون العام لهذا التخصص في ترك الفرصة أمام

الفنون الاخرى للظهور ، قاطعا بذلك الطريق أمام الانسجام والاتحاد الجميل الذى رأيناه فى الفن اليونانى . الذى كان الفن فيه خالى من التخصص بحيث اننا نجد فى العمل الفنى الواحد عدة فنون مشتركة .

ويعتقد كل فنان كبير انه يحمل العالم فى نفسه ولا يظهره الا بلغة محددة . والفنان لا يتكلم الا لغة واحدة بين أفراد لا يسمعونه دائما أو على الاقل يتكلمون غيرها ، ومن هنا كانت جهود الفنان الكامل فى أن يجعل عمله جماعيا كلما أمكن .

ويتلخص التاريخ الكلى للفن فى الاوقات الحديثة فى حركتان عكسيتان:

أولا — التخصص الفنى .

ثانيا — المجهود الذى يبذل فى الالهام الجماعى .

أى أن أمامنا أشكال جديدة للفن : أولا : التخصص : ونجد فيه الفنانين الممثلين حماسا مثل بتهوفن الذى أراد أن يستخدم الموسيقى لظهار آرائه السياسية والكتاب المثاليون الذين حاولوا جاهدين التعبير عن الحقيقة التى يصعب اظهارها فى الادب^(١) .

ثانيا : التصميم : ونرى كمثال فجنر Wagner لكى يرسم الدراما اليونانية بالموسيقى . كذلك نجد فى بعض كتابات الشباب المعاصر محاولة للوصول الى هذا التصميم عن طريق المسرح والتمثيل ، كل هذا يدل على ذروة الطموح الموجود فى قلب كل فنان كبير .

والمرح والموسيقى والقصة والشعر مليئة كلها بأمثلة لهذا العمل المزدوج ، الذى يلخص الحياة النفسية للفنانين المحدثين .

(1) Beauté : Gaston Rageot 2 éme chapitre.

وقد ظهرت عدة نظريات عن الدوريات التي تمر بها الانسانية مطبقة على التطور الفنى • وقد كان فيكو المفكر الايطالى يرى أن المجتمع البشرى وكذلك الفن قد مر فى ثلاثة عهود •

أولا — عهد الالهية :

حيث كانت عقلية الانسان والفن متشعبة بروح الخرافة Mythologie

ثانيا — العهد الثانى :

وهو عهد الابطال وقد خضع الفن فيه للروح السائدة فكان وسيلة لتجميد الابطال واعمال السادة الاحرار وهو الفن الذى نجده فى العهد اليونانى ممثلا فى اشعار هوميروس وكذلك فى العهد القديم •

ثالثا — العهد الثالث :

عهد الحرية : حيث سادت الحقوق المدنية والسياسية وتكون الحكومات فى الغالب ديموقراطية واختفت الامتيازات الخاصة ببعض الافراد كذلك لم توجد فروق اجتماعية ترفعهم على غيرهم — ومن هنا تقدمت الفنون فى هذا العهد وأصبح الفن وسيلة للتعبير عن الحياة الجارية للناس فى المجتمع ، ثم اضمحل هذا العهد ليعود العهد الدينى من جديد وهكذا ••• وبناء على ذلك يتطور الفن فى شكل دورى المسحة الدينية الى المسحة التاريخية الى المسحة الدينية وهكذا •

وقد كان هيجل الفيلسوف الالمانى يرى وجود قانون دورى مغلق ذو حالات ثلاث مثل فيكو وهو أن الفكر البشرى فى عملياته وفى تاريخه ينتقل من فكرة معينة *thèse* الى فكرة مناقضة لها *antithèse* ثم الى فكرة تتوسط *synthèse* فيما بينهما — ويمثل هذه الدورة فى نفس الانسان الناحية الدافعة ، والناحية العاقلة والناحية الشعورية — وفى العلوم

الطبيعية والمنطق والاخلاق وكذلك الجمال فى الفنون فهناك فنون الحركة أو الرفع : وهى الرقص والغناء والموسيقى وفنون السكون : وهى فن العمارة والتصوير والنحت وأخيرا الفنون الشعرية : هى الشعر الغنائى والقصى •

وهذا يدل على تأثر لاسباكس بأراء هيجيل •

ثم جاء بعد أوجست عالم الاجتماع الذى وضع قانون الحالات الثلاث : وهو أن الانسانية تمر من العهد الدينى أو اللاهوتى الى العهد الميئافيزيقى الى العهد العلمى والفن مر بنفس هذه العهود وبنفس الوضع^(١) •

أولا سادت الفن النزعة الدينية - ثم كان للفن الصفة النظرية - ثم أصبح الفن بعد ذلك وسيلة للتعبير عن نزعات المجتمع البشرى أى بتأثر الفن بالزمان والمكان وأنه أصبح اجتماعيا لا انسانيا عاما •

وهذه القوانين تمثل لنا النزعات الفردية الفلسفية فى تطور الفن • وهذه النزعات تضع تفكير من أشرنا اليهم فى فلسفة التاريخ وليس فى علم الجمال لأن هذا الآخر الاخير يبحث فيما يكون لا فيما يجب أن يكون •

فالفن لا يخضع لقانون واحد انما يخضع لظروف اجتماعية متعددة تجعله يتلون بشكل معين حسب الاشكال الاجتماعية ونوع الحياة الاجتماعية السائدة ومع مستوى الحضارة الغالبة •

يتبين هذا اذا نظرنا الى الفنون البدائية ومنها قبائل البوشمان (جنوبى أفريقيا) وقبائل النجرو (غرب أفريقيا) وغيرها : ويمتاز هذا الفن بأنه أقدم الفنون وأبسطها أو القديس (بريل) أول من اكتشف هذه

(١) الفن وعلم الاجتماع الجمالى الباب الاخير •

الفنون في كهف تاجيرا بشمال اسبانيا في سنة ١٨٨٠ مما يدل على أن الفن مظهر من مظاهر الابتكار الاول للانسان فهو يسبق المكان والزمان •

فالفنون البدائية مثلا نجدنا تمثل صنوفا الحيوانات والطيور والاشخاص في أوضاع مختلفة ونسب متعددة • وذلك في لوحات أو رسوم على الجدران تمثل الغناء والرقص وما يصحبهما من طقوس عقائدية • كما نجد تماثيل الاصنام تمثل الاخصاب والزراعة والمطر والرعد ، الى غير ذلك •

فهى فنون بسيطة وبعيدة عن التعقيد فنون واقعية تترجم عن أشياء بالفعل في ذلك الحين — وهى فنون دينية وهذا يتضح أيضا عند سكان استراليا الزنوج •

ومدرسة دور كايم هى التى تعطى هذه الصفة الدينية للفنون المتأخرة وخاصة تلميذه ليفى (بريل) — كذلك فان الفن البدائى المتأخر له صفة جمعية فهو مظهر عام أى أنه لا يمثل فقط مهارة الفنان بمفرده بل التعاليم المتوارثة من الآباء والاقرباء • غير الاجيال — وهذه الصبغة الدينية لهذا الفن المتأخر تتأثر بالنزعات السحرية السائدة في المجتمع حتى تأدية هذا الفن جميعه فهو فن ديمقراطى شعبي وضع لكل الناس •

ولهذا القسم ميزة أخرى انه فن عملى نفعى بمعنى انه ظهر وتطور مع الآلات العلمية.يستخدمها الانسان في مآربه المختلفة ولذلك يسميه جولد نفيزر « بالفن الصناعى » •

فضلا عن أن هذا الفن المتأخر يعتبر فن حسى لأنه يعتمد على الحواس وخاصة على النظر فهو فن واقعى في أغلبه وفن وضعى يقرر وصفا معيننا لشيء معين كما هو الحال في آخر العصور الفتوغرافية — والفنان المتأخر لا يمكن أن يوصف بالذكاء لأنه يخضع دائما لقوة الادراك الحسى ولقوة

العرف والتقاليد والعادات في فنه وقد قال هذا Ch. Lalo أحدث الكتاب في الفن من الوجهة الاجتماعية .

وقد قام عالم آخر بدراسة تاريخ هذا الفن البدائي ومعرفة دوره في تطور الفن الحديث M.Haerness جروس Gross في بحثه الاجتماعي الخاص اذ قال M.Haerness ان الفن البدائي كوظيفة اجتماعية لم يساهم بطريقة واضحة في الفن الحديث وفي تقدم المجتمع لأنه كان يرى ابتعاد الأهمية الاجتماعية عن هذا الفن .

واعترضات M.Haerness على بحث جروس كانت كثيرة ولكنها قد تكون صادرة عن نظرية ضيقة عن السوسولوجي لأن الانسان في تصوراته الجمالية خضع لدفعة فردية أو لخلق فردي فرضته عليه الطبيعة مثل أهمية الطعام والشراب ، وما الى ذلك . ولكن العادات والقواعد الجمالية ولدت فمن التكرار الدائم لنفس الأفعال التي تنتسب الى السوسولوجي . وقد يكون هذا الخلق فرديا ولكننا نرى أن الفن ظاهرة اجتماعية بتفاوت بين الجماعات الرعوية والتي تعيش على الصيد وبين المجتمعات الزراعية . وقد لوحظ أن هنا لك ثلاث فترات لتاريخ الفن البدائي في أوربا :

(أ) فترة الواقعية عند قبائل الصيد الاولى .

(ب) عهد التخطيط للزراع والرعاة .

(ج) تقدم الفن السامي عند الشعوب التي تقدمت فيها الصناعة والتجارة .

ولكن اذا كان صحيحا أن القيم الجمالية في المجتمعات الاولى كانت فردية ، وغير منظورة وناتجة من اللعب أو من خضوع الانسان الغريزي للبيئة فانها تعتمد أكثر على ظواهر اجتماعية أخرى بقدر ما تتقدم الحضارة في هذه المجتمعات ويلتئم شمل المجتمع .

فالشكال الفنية المختلفة كما يرى المؤلف كانت مستوحاه من الحفلات وتجمعات الافراد مثل اختفاء الرجال في وجوه وهيئة حيوانات « كذلك فان الفن التقليدى الخالص أصبح فنا رمزيا ، وفرضت بعض الاشكال الزخرفية والآثار الجنائزية عن طريق المغامرات مثل صورة السفينة التي تعبر عن زورق النفوس » فضلا عن ذلك فان الاشكال قد تقدمت بمقتضى التطور وأصبح الرسم المخطط يحل محل الرسم التقليدى العريزى والزينة الهندسية المفضلة عن الزينة الطبيعية ، وأصبح الوجه الحى سواء أكان لرجل أو حيوان يعبر عنه بالاشكال الهندسية^(١) .

وإذا نظرنا الى الفنون المصرية القديمة نجد أنها مرت أولا بدور الفنون العملية التطبيقية — وكان الانتاج الفنى يقوم فيها لغرض نفعى صرف كأشغال المعادن والخزف والفخار والنسيج ... الخ ومع ذلك كانت تمتاز بدقة التصميم والدراية التامة بأصول الخامات .

والتناسب فى جمال الوحدات والعلاقات ولم تغفل فى تطوراتها النفعية الى الانسانية الجمالية — التعبير عن الاوضاع الاجتماعية المحيطة أو نقل المشاعر الانسانية ومطامع الوجدان الاجتماعى نجد هذا أيضا فى النحت المصرى والعمارة المصرية فكانت التماثيل تصور ابن البلد الى جانب الغنى، والملك ، فى أوضاع شتى وكانت العمارة على أنواع ، نوع يبنى لرجل الشعب العادى ونوع لطبقة الاغنياء والحكام .

فالفن المصرى كان ذو طابع جدى لم يعرف المرح أو الحب وقد سميت مصر دائما أرض الهدوء وتبدو صفة الجدة هذه واضحة فى النحت الذى يجذب الانظار^(٢) .

(1) L'Art Egyptien - caractères généraux : Henry Martin, 360.

(2) M. Haernes : Prhistoire de l'art Ligure en Europe, depuis Parigine Jusque ver 100 avant j.p. Ammee sociologique 1932 - Paris Alour.

وقد كان الطابع الدينى هو الغالب على الفن المصرى القديم وخاصة عقيدة الخلود والحياة الثانية وأهمية عبادة الموتى وهذه العقيدة كانت نتيجتها أعمال فنية رائعة وعدد عديد من الاثار الفنية الباقية مثلا الاهرامات والمصاطب والمعابد ووادى الملوك وليس الا مقبرة كبيرة — كذلك برع المصريون فى الفن الزخرفى وكانوا أساتذة فيه وبالرغم من بعض الاختلافات فى عناصر الفن المصرى أبقى دائما نفس الابدية وهذا الاستمرار ليبدو ليس فقط فن العمارة ولكننا أيضا فى النحت ولا يسعنا الى القول أن الفن المصرى ظل قرونا طويلة على وتيرة واحدة ولم يتطور خلالها متأثرا بالموضع الدينى والاجتماعى الذى كان موجودا^(١) .

وكانت الفنون اليونانية القديمة تمتاز بأنها فنون ديموقراطية تبنى على الابتكار الشخصى ذو الغرض الاجتماعى وكان الفنان أكثر أفراد المجتمع احتراماً لأن الفن كان يعبر عن حاجات اجتماعية عامة وخاصة ولم ينحصر على طبقة معينة .

والفن اليونانى يتميز بأنه فن الحياة يتعلق بالدنيا ويعبر عن الروح اليونانية وما سادها من خرافات وأساطير فكانت تماثيلهم ترتبط بالانسان وتمجد جمال الطبيعة والوجود كتماثيل زيوس وأبوللو وهيرا وأفروديت وغيرها .

وهو فن مرح ومتحرك يخطو الى الامام وهذا عكس الفن المصرى الذى لم يتطور كما قلنا من قبل طوال ٣٠ قرناً لأنه لم يكن فنا ديمقراطياً . كذلك يتميز الفن اليونانى بأنه فن عقلى مثل : أفلاطون وأرسطو طبيعة الفن وفى مميزاته الخاصة وفى أثره على حياة المجتمع — وكذلك كان الفن اليونانى القديم تراث عام لسائر المجتمعات الراقية التى تفهم الفن حسن أصول حضارية تكفل المعنى الاجتماعى والاخلاقى فى الفن .

(1) Ibid.

والفنون المسيحية والاسلامية هي الاخرى كانت متصلة وثيقا بالمعتقدات الدينية والاجتماعية . فكانت اللوحات والتماثيل للفنانين المسيحيين توضع في ابهاء الكنائس وعلى جدرانها . لقد كانت الفنون المسيحية تعبر في أشكال ورموز عن كل المذاهب الكاثوليكية وكان الفن المسيحي الخاص بالازمنة والاجناس يختلط مع الفلسفات المتابعة متخذاً سلاحه من الواقعيات والمثاليات التي كانت مرنة ومتحركة والفن المسيحي يلخص الى حد ما كل تاريخ الفن الغربى فقد استخدم كل المنابع وجعل كل الميول روحانية وعن طريقة وبه وصل الفن الغربى الى هذا الكمال .

وقد شهدت اثاره بما بذلته الانسانية المقهورة أمام العقائد والاحساسات المسيحية حتى يمجد الممثل الاعلى الجديد في أشكال كاملة .

وقد ثبت أن الوقائع الفنية والثقافية الخاصة بكل عصر قد خضعت للظروف الدينية والعقائدية للكنيسة ولللامح المختلفة للفكر المسيحي . انها الرابطة بين الحضارات المتغيرة والدين الثابت في واقعه ولكنه متغير في مظاهره التي يبيدها وآثار الفن المقدس هي تعبير عن النظريات اللاهوتية والاجتماعية والفنية للعصور التي خلقت فيها . وكانت عبقرية كبار الفنانين المسيحيين مرآة تنعكس عليها تجربتهم الدينية ونظرتهم الشخصية عن العالم والدين الجماعى في عهدهم .

ان الفنان يميل الى اعطاء العمل الفنى صفة انسانية خالصة يضع فيها أفكاره الخاصة وانفعاله الشخصى وعن طريق ذلك يوصفها الى الآخرين .

ثم ولد علم الجمال وتغيرت طريقة تصور الاشياء وظهر نوع آخر من الشعر الفردى والمثل الاعلى الجماعى وبين موهبة الفنان وحاجات الجماعة فكان هناك تاريخ الفنون التشكيلية - وتاريخ الفن الدينى خلال العصور

المسيحية — واتسع مجال الفن وزاد البعد عن الكتب والطقوس وطبقت الاهتمامات الجماعية والروحية والثقافية وأصبح الفن له غرضه الخاص به حسب نظرية الفن للفن^(١) .

والفن الاسلامى هو الآخر ظهرت فيه الروح الدينية فقد كانت العمارة الاسلامية تعبر عن هذه الروح • وترسم الآيات القرآنية على ميدان ومنابر المساجد • ورسمت أيضا على الاواني الخزفية الى جانب الطير والانسان والنبات •

أما الفن اليونانى فقد خضع للتعاليم اليونانية لأن الرومانيون كانوا عباقرة قانونيين فكانت ابتكاراتهم الفنية محدودة •

وهذا الفن يشتمل على الجمال والفائدة في آن واحد ، وذلك لأن العقلية الرومانية عقلية عملية نفعية • ولذلك كانت الفنون الرومانية وخاصة فن العمارة أقل في قيمتها الجمالية من الفنون الاخرى — ورغم ذلك فان الفن الرومانى كان له أثر كبير في الفن الحديث منذ عصر النهضة •

ويتميز هذا الفن بأنه فن ارسقراطى وهذا ما يجعله يختلف عن الفن اليونانى — ورغم ذلك كان في بعض نواحيه يتعلق بالمنافع العامة في المجتمع •

ويوجد في الفن الرومانى فرع جديد له يوجد في الفن اليونانى هو فن الحدائق وهو فن له صلة وثيقة بفن العمارة وهو فن يدل على الترف « مثال حديقة لوكولوس » وحدائق قيصر الذى صممها أشهر مهندس هو الفنان « مانيوس » وقد تقدم أيضا فن آخر في عهد قيصر هو فن سك النقود •

وأخيرا فان الفن الرومانى يتصف بعدم التأثير بالدين • وركن بعد انتشار المسيحية في أوروبا بعد الفن اليونانى والرومانى عن الدنيا • واتجه

(1) Histoire de l'art religieux - Par Maurice Devis.

الى حياة الاخرة واتجه الفن الى تمجيد المسيح والله — واصطبغ فن البناء
بالصبغة الكنائسية .

الفن القوطى *l'art gothique* فى فرنسا . وهو يمثل الفن المسيحى
بالمعنى الصحيح . وتعتبر تطورات الفنون — على مدار العصور — عن تطور:
المجتمعات والنظرة الجمالية الى الاشياء فلا عزو اذا رجعنا اليها كلما أردنا
دراسة مرحلة فنية أو اجتماعية معينة .

ولم تفترق الموسيقى أو الرقص أو الغناء عن المنحت أو العمارة فى
تصوير المجتمع ، وأحداثه وأحاسيسه . فقد بدأت الموسيقى — يصاحبها
الغناء والرقص الجماعى — بأناشيد وتراتيل فى المعابد ثم الكنائس وفى
الاحتفالات الدينية والشعبية . ثم الفصل كل لون على الآخر فكان الغناء
الجماعى والفردى ، وكان الرقص التعبيرى . ولم يتخلف أى لون منها من
التأثر بالبيئة والاضاع الاجتماعية أو الرمز اليها . وهكذا نرى أن الفنون
ترتبط بالمجتمع شكل أو بآخر . ونعبر عن مشاكله وأحداثه — وكما أنها
ترتبط بالمجتمع ، فهى ترتبط بعضها ببعض أوثق الارتباط .

وتلتقى هذه الفنون بالادب الذى هو جانب معه الفنون وتتفاعل معه
من حيث الوظائف الاجتماعية التى يؤديانها ، ومنها الوظيفة الروحية
بالتفريغ عن مكبوتات النفس وأزماتها وعقدها ، والوظيفة التربوية بادراك
وسائل تربية النفس والاخلاق والفضائل ، والوظيفة الدعائية بالتأثير فى
الجماهير ، ودفع النفوس الى الحركة والحماسة ، وتوجيه الرأى العام نحو
الغايات المطلوبة^(١) . وهذا نلمسه بقوة فى الحروب والازمات السياسية
والقومية فى تعبئة الشعور والوجدان . ونلمسه فى القصيدة والقضية

(١) الفن وعلم الاجتماع الجمالى . د. عبد العزيز عزت ص ٣٨

والوطنية والنشيد الحماسى والقطعة الموسيقية التى تعبر عن الانفعال واليقظة اللحوة التى تشير بالبذل والنداء •

وهذه العلامة بين الفنون والادب ، وبينهما وبين المجتمع ، تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الظواهر الاجتماعية بجميع مظاهرها تتعاون فى تصوير وتسجيل الازواض الاجتماعية السائدة أصدق تصوير ويعتبر التاريخ سجلاً للأحداث السياسية التى مرت بها أمة من الامم هو بعيد خير معبر عن التطورات الاجتماعية التى سادتها من حيث مزية من مجريات الاحداث فى دقائقها واهتمام الجماهير بها ، وتجاوبهم معها ، أو معارضتهم اياها • وهذا يوضح مدى انتشار الوعى السياسى والاجتماعى بما يدور فى المجتمع • فإذا نظرنا الى التاريخ وقارنا بينه وبين الفنون والآداب • عندئذ يمكننا اعتبارها سجلاً للأحداث الفنية والفكرية التى مرت بها الامة • وهى لا تقل خطراً ولا أهمية عن الاحداث السياسية فمدى الصلة بين الآداب والفنون والتاريخ اذن تبدو واضحة اذ اعتبرنا الظواهر الاجتماعية كلا متفاعلاً فى تأثيره فى المجتمع وكل الظواهر يتجاوب بعضها مع بعض فى تشكيل البيئة الاجتماعية وفى ابراز كيانها •

ولا تعدو الحقيقة اذا قلنا أن الاحداث الفنية والادبية سبب مباشر وسابق للأحداث السياسية • فالملاحظ أن الثورة لا تقوم الا اذا شعر الشعب بالظلم الاجتماعى ، واقم عليه • يشعر به عن طريق الاعمال الادبية بألمها من وسائل نشر واجتماعات وندوات •

أى أن الفنون والآداب تعتبر بحق سجلاً واخياً لما كانت عليه أية أمة، من عادات وتقاليد • وما خلفته من آثار فنية ، كالقصاص والروايات وألوان الفنون والآداب الأخرى •

ويعتبر تاريخ الادب والفن جزء من تاريخ الحضارة فالادب الفرنسى مثلا هو مظهر لحياة فرنسا القومية ، نجد في سجله الغنى الطويل كل التيارات الفكرية والادبية ، التي امتدت الى الاحداث السياسية والاجتماعية ، أو تركزت في نظم الحكم • بل ونجد كل هذه الحياة النفسية الدينية ، في قلوب الشعب الفرنسى^(١) • ويكفى أن نعثر على كتاب لمسرحية لراسين Racine وكورنيل Cprneille فنتظهر لنا مرحلة من مراحل التطور الفكرى الفرنسى تسير جنبا لجنب مع ظروف اجتماعية ظاهرة فيها أوضح الظروف وأصدقها • نفس الوضع في كتب الادب الاغانى مثل أوليفرتويست لشارلز ديكنز •

وتتأثر الفنون والآداب كذلك بالاوضاع السياسية^(٢) وتتوثر فيها وبقدر الحرية التى يكفلها الحاكمون للفن والفكر بقدر ما ترتفع وتسمو • فنراها تردهر مع الحرية المكفولة ، وتختنق وتتعثر ويحتد عن الواقع وتصبغ بالنفاق في عهد السطوة وعدم الحرية مثال ذلك العهد العنصرى في روسيا قبل ثورة ١٩١٧ •

ومن أمثلة ذلك أى تأثير الفن والادب في السياسة أنه يمهد للاحداث السياسية الكبرى ، كما حدث في فرنسا قبل ثورة ١٧٨٩ فقد قامت معها تنادى بالحرية والاخاء والمساواة وكان للادب الجانب الاكبر في ذلك ، وكما حدث في روسيا قبل الثورة ، اذ قام بدور خطير ، على أيدي تولستوى ، وتشيكوف ، فهولها ، وبشر بها ، وهكذا قد كون علاقة الادب والفن بالسياسة وعلاقتهم بالمجتمع علاقة وثيقة متجاوبة مع الاوضاع والاحداث الاجتماعية •

وستنتبع بعد ذلك تطور المذاهب الفنية والادبية مع التطورات الاجتماعية والثقافية في المجتمعات المختلفة والدور الذى لعبه الفن والادب

(١) لاشون ومابيه « منهج البحث في الادب واللغة » ترجمة محمد مندور

ص ١٩ •

(٢) الادب والمجتمع — محمد كمال الدين يوسف ص ٣١

في هذا التطور بالإضافة الى تأثرهما بالاحداث الاجتماعية ومدى مساهمتها
في أحداث التغيرات الاجتماعية والثقافية .

وهناك حقيقة هامة هي أن المذاهب الفنية والادبية لم تعرف طوال
العصور القديمة والعصور الوسطى أى في القرن السادس عشر . وانما
عرفت في مطلع عصر النهضة حيث تنبه الفكر الاوربي الى اجتياز فترة فنية
وأدبية معينة ،على فترة أخرى من حيث الاصول والقواعد الفنية المتبعة في
هذه الفترة . وكانت هذه المذاهب وليدة مظاهر وأوضاع اجتماعية تتغير
فيتغير الطابع الفنى والادبى تبعاً لها ، وتبعاً لمجريات التاريخ ، وملابسات
الحياة ، في العصور المختلفة فهى على ذلك تيارات فنية وأدبية تسود في
فترة زمنية معينة . كانت تأخذ جمل سماتها من الاوضاع الاجتماعية عن
السياسة والخلقية السائدة في المجتمع في فتراتنا التاريخية المعروفة بل
ليست الفترة الزمنية المعينة بشرط فقد تلازم ظهور الرومانسية والواقعية
مثلاً في وقت واحد . معنى هذا أن المجتمع بأوضاعه المختلفة يفرض على
الفن والادب ، وأن كان ذلك بطريق غير مباشر أحياناً تياراً فنياً معيناً يجرى
مجراه ، ويعبر عن هذه الاوضاع والمظاهر . والمطلع على آداب وفنون
اليونان مثلاً أو الرومان فإنه يطالع صورة للمجتمع اليونانى أو المجتمع
الرومانى بغض النظر عن كونها كلاسيكية ، صورة تبين له خصائص ذلك
المجتمع من جميع أوضاعه السياسية ، والاقتصادية ، والخلقية ، وعاداته
الاجتماعية ونفس الوضع بالنسبة للادب الانجليزى أو الفرنسى أو
الامريكى أو الغربى ، ويستطيع بذلك مقارنة مجتمع بمجتمع آخر على ضوء
الفنون والآداب السائدة فيها .

وسنبداً بالفن في العصور الوسطى حتى بداية عصر النهضة .

الفن في العصور الوسطى :

نجد أن الفن في فرنسا أو في الدول الغربية كان ذو طابع دينى تمثل في
فن العمارة الذى كان أكثر الفنون ازدهارا في هذا العصر .

ولكن اذا نظرنا الى الشرق فى القرن السابع نجد أن ظهور الامبراطورية العربية الاسلامية كان له أثر على الفن العربى والاسلامى عموما فى ذلك الوقت ، فقد ظهرت حضارة عظيمة مشتقة من الحضارة البيزنطية والحضارة الفارسية وكان مركز هذه الحضارة فى دمشق وبعداد فى الشرق ، وفى القاهرة بمصر ، وفى الاندلس بأسبانيا .

الفن العربى الاسلامى :

كان لتحريم تمثيل الوجوه الانسانية فى الدين الاسلامى أثر على فن التصوير والنحت ، فلم تتقدم هذه الفنون فى العصر الاسلامى . ولذلك فان العربى يتلخص كله فى فن العمارة . اذ كانت الآثار العظيمة التى تزين المدن العربية الكبيرة تشهد بثناء الخلفاء وقوتهم . وهى المساجد والقصور .

وهذا الفن كما سبق القول مشتق من الفن البيزنطى Bysantin والفن الفارسى l'Art Persian ويمتاز بالاعمدة المزركشة المستمدة من الفرس والقنوات والقباب البيزنطية . وهذه الآثار العربية ليست لها بساطة الآثار العربية ليست لها بساطة الآثار اليونانية أو قوة الاثار الرومانية ، فانها تعطى الاحساس بالترف والحلم .

وعموما فان الفن العربى كان خليط من الفن الفارسى واليونانى والاشورى والاسبانى أى من كل البلاد التى تكونت منها الامبراطورية الاسلامية اذ كانت فنونها خليط بين الفن الشرقى والغربى (١) .

الفن الغربى فى العصور الوسطى :

كان لفرنسا الغلبة الفنية والادبية على أوروبا بسبب الحضارة الفرنسية التى كانت تقدم فى القرن الثانى عشر . فان التقدم والنشاط الاقتصادى كان متناسبا مع النشاط العقلى والفنى فى ذلك العهد . وقد

(1) L'Art de l'Islam par Georges Mareis.

ظهرت العبقريّة الفنيّة الفرنسيّة في القرن الثالث عشر وظهرت في ازدهار الفنون والآداب وعظمة الفن القوطي إذ كان الفن المعماري هو المميز للعصور الوسطى تتبعه الفنون الأخرى الرسم والنحت التي كانت ملحقة بفن العمارة •

وكما قلنا أن الفن في هذه الفترة كان غنا دينيا يتلخص في الكاتدرائيات والكنائس التي كانت كل منها متحف كامل • وقد قال ميشيلين : أن الكنائس في العصور الوسطى كانت تعبيراً عن الإيمان الصادق •
Michelet : "Les Eglises du Moyen Age sont bien réliement de splendides actes de foi

وكان فن العمارة واحداً في كل مكان ولكن اختلف في طريقة التنفيذ فنجد أنه كان هناك الطابع الروماني Style Roman . والطابع الفرنسي أو الطابع القوطي Style Gothique

وبالنسبة للطابع الروماني فنجد أن المعابد أولاً كانت مغطاه بالاختشاب ولكن بعد فترة الهدوء التي تلت الغارات النورماندية والهنغارية أصبحت المعابد مغطاة بالبناء^(١) •

ومقال لذلك Notre Dame de Portiers تصوير Nouredin وقد قيل أن الفن الروماني كان قادماً من الشرق نتيجة لاتصال الإمبراطورية الرومانية بهذه البلدان وخاص في انطاكية Antioche والاسكندرية - وقد استقر الطابع الروماني في القرن الثاني عشر حيث بلغ الفن زروته بين ١٠٦٠ / ١١٤٠ •

وقد كان فن العمارة الفرنسي في القرن الثاني عشر أكثر علمي وأكثر
إذ كان تعبيراً عن السمو النسي وليس بالفن القوطي L'art Gothique

(1) Malet - Isaec : Le Moyen âge L'art Arabe, et la civilisation en Occident - Hachette.

وبالنسبة للمعابد الرومانية فان عبء اقامتها كان على رجال الدين ولكن بالنسبة لفرنسا فان البورجوازية المدنية كانت تتكفل بذلك أى أن الاعمال القوطية الفعلية كانت من انتاج الشعب كله نتيجة للتقدم الاقتصادي كما سبق القول .

وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان لتقدم حياة البلاط في فرنسا أثر على الفنون والآداب أى أن الفن كان خاصا بهذه الطبقة الغنية . ولكن في ذلك العهد طفت الاعمال الادبية على الاعمال الغنية التشكيلية . اذ كان الشعب مغرما بالاساطير .

ولكن المظاهرة الملموسة في ذلك الوقت هو محاولة استغلال فن العمارة عن النحت والتصوير ، وظهور الفن الزخرفي *L'art décoratif* وبداية شهرة الفنانين أنفسهم فنذكر منهم : *Claus Sluter* في النحت . وفي الرسم *Jean Van Eyck* ومن أعماله *La Vierge du Donateur* و *Jean Fouquet* ومن أعماله *L'adoration des Mages*

أما في ألمانيا :

فكان الفن والادب يسير جنباً الى جنب مع النشاط الاقتصادي في بداية القرن السادس عشر ونهاية الخامس عشر وكانت مدينة نورمبرج مركز هذه الحضارة الفنية في ذلك الوقت . ومن أشهر الفنانين الالمان *Albert Durer* التي جمع البراعة في الرسم والنقش ومن لوحاته *Le Chevalier de la Mort* هو *Holbein* كذلك ظهرت آلة الطباعة التي انتشرت في العالم وكان لها أثر كبير على انتشار الادب في العالم .

أما في ايطاليا : فنجد أن الفنانين الايطاليين أبدعوا في فن الرسم الحديث حيث كانت لايطاليا الغلبة زهاء ثلاثة قرون .

من أشهر الكتاب في ذلك العصر *Dante* ومن أشهر الرسامين *Giotto* ولكن هذا الفن الايطالي كان مثل بقية الفنون في البلاد الاخرى

ذو طابع دينى •

الفن في عصر النهضة : ١٣٥٠-١٦٥٠ ميلادية •

في هذا العصر تنبه الفكر الاوربي وأراد أن يتحرر من سلطة الكنيسة والدين • حيث عادوا الى تعاليم اليونان والرومان القديمة أى كان هناك عودة للتقاليد القديمة ولكن مع تجديد عام في مظهر الفنون والآداب • وقد أصبح الانسان هو المعيار الحقيقي لتكيف قيم الاشياء والحكم علينا بالقبح والجمال • اذ أصبح الفن يتجه الى الناحية اللادينية وهى عبارة الجمال أى الروحانية وليست الدينية أو المسيحية ولقد بحث فن النهضة في شكل في الطبيعة وفي الانسان وفي الحيوان وهذا عكس ما كان في الفن المسيحي الذى حقد من جمال جسم الانسان ، ومن قيم الطبيعة وشئون المجتمع وهذا عكس الفن القوطى الذى يتم الى الترامات داخلية للنفس البشرية •

ومن أهم البلاد التى ساهمت في فن عصر النهضة ايطاليا حيث ظهر فيها كبار الفنانين الذين يمثلون هذا العصر وهم ليونارد ديفنشى Leonord de Vinci الذى كان رساما ونحاتا ••

ونفاننا بارى في المعمار بالاضافة الى المامه بالموسيقى وقد جزبته فرانسوا عن طريقة فرانسوا الاول •

ميثيل انجلو Michel Angolo : كان بادي في فن النحت بالاضافة الى الرسم وفن العمارة •

رافائيل : Raphaél كان رساما مثاليا •

تيتيان . Titien كان ماهر في التلوين ورسم الزيت coloriste
أما في فرنسا كان هناك معماريين بارعين مثل Pierre Lescot الذى أقام قصر اللوفر وفيليب ديلورم Philibert Delorme الذى بنى قصر التوبليير، وجان بلانت Le Château de R. Bullant الذى أقام قصر أكوين
Le Château d'Ecouen

وكلها من الآثار الفنية التي ما زالت باقية في فرنسا تمثل عهد الازدهار في
الفن المعماري •

وكان هناك فنانون يربحوا في النحت في فرنسا في ذلك العهد مثل
ميثيل كولومب

Jean Gaupon, P. Bontemps Michel Colombe Ligier Richier

أما الفنون اليدوية : فبرع فيها Benvenuto ولم تحارب الكنيسة فن
عصر النهضة ولم يعادى هذا الفن الا - البيوريتانز •

كذلك من العوامل التي ساعدت على ظهور فن النهضة : النقل -
الترجمة عن اليونانية والرومانية - كذلك ظهور الاكتشافات الكبرى •

وعند دراستنا لتاريخ الفنون وجدنا أن الادب كان أكثرها تأثيرا
وتأثرا بالاحداث الاجتماعية وقد ظهرت فيه عدة مذاهب كان لها أثر على
الفنون التشكيلية كذلك •

المذهب الكلاسيكي :

نشأ هذا المذهب في القرن ١٧ كدعوة الى الرجوع للقديم • من أدب
اليونان ، والملايينى وأنشأ أدب يماثله ، وأسلوبا ، ولذلك عندما نشأ المذهب
الكلاسيكي أعتبر أنصاره أن أرسطو هو أبوه الاول وهو الذى كان يرى أن
الشعر محاكاة أو تقليد للطبيعة ، أى تقليد للواقع والاماكن • فالفن عنده
صورة يماثلها شيء في الواقع^(١) وليس مثالا لا نصيب له من الواقع ، كما
يقول أفلاطون زعيم الرومانسية فيما يعتقد أصحاب هذا المذهب بل أنه
صورة للواقع وللطبيعة^(٢)، والفنان عنده هو الذى ينظم توفر الافكار • بما

(1) A. Malet & J. Isasc : XIVE, XVe, XVIe siècles "La Renaissance".

(٢) أرسطو فن الشعر ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ص ٣

عقده من الهام وصنعه فالالهام يوحى بالفن • والصنعة تنظم وتقدم في اطاره المناسب ••• ومن هنا يعتبر الكلاسيكيون أن عناية الادب هي البحث عن الحقيقة بمعناها العام ، ومعالجة مشاكل الانسان في كل زمان ، والانتصار للخير ضد الشر والرذيلة • وأن عليه مراعاة التقاليد والعقائد السائدة ، متمثلا في ذلك بمبادئ الآداب القديمة ولذلك يعتبر عصر الادبين القديمين ، اليونانى ، واللاتينى ، العصر الذهبى للادب بما له من موضوعية في تناول مشاكل الانسان العامة ، التى يمكن أن توجه في كل زمان ومكان (١) •

ونعتبر آداب هويدوس ، وهنريود ، وسوفوكليس ، وايريبيدس وغيرهم من خير الاعمال الادبية الكلاسيكية لما يمتاز به من جودة الصياغة اللغوية وبلاغة التعبير •

وسار على هذا المنوال أدباء فرنسيون مثل Racine راسين ، Corneille وموليير فأنشأوا أدبهم التمثيلى على غرار هذه الآداب القديمة فاعتبروا أيضا من الكلاسيكيين •

فاذا نظرنا الى أعمال هؤلاء القدماء والمحدثين نتساءل هل خرج أدبهم عن نطاق تصوير المجتمع فاتخذ موقفا بعيدا عن مشاكله ، وعاداته ؟ وهل معنى أنه أدب عقلى موضوعى ، أنه يتجاهل البيئة التى نشأ فيها ، وأفراد مجتمعه الذين صدر اليهم ؟ وهل امتيازه صادر عن امتياز أصحابه الادباء ، دون أن يكون لأفراد المجتمع مثل هذا الامتياز ؟

وبالاجابة على ذلك فان من المعروف أن المجتمع اليونانى القديم امتاز بتقدم فكرى وذنى رائع وخاصة في القرن الخامس قبل الميلاد ••• ومن المعروف أن الفن والادب اليونانى القديم ، في تطوره ، يعد صورة صادقة ورائعة لتطور المجتمع اليونانى نفسه ، تطوره من حيث المعيشة والمقتنات

(١) الادب والمجتمع ص ٨٢ وما بعدها .

والعادات الاجتماعية • ويكفى أن النقاد كانوا يعتبرون كيوربيدس الكاتب المسرحي كلاسيكيا •• أن للواقعية ، في نزعته الانسانية واتخاذها أشد المأس فجيعة حتى يستطيع التأثير في جمهوره • وكان يرى وجوب القضاء على الفروق الاجتماعية في مجتمعه الذي كان يتكون من طبقتين سادة ، وعبيد محاولا بذلك اصلاح المجتمع •

وتتمثل واقعيته بقوة في مسرحية « الكترا » وقد جعل فيها البطلة وهي ابنة النبلاء والحكام تتزوج بفلاح رقيق الحال • وتبدو في ملابس متواضعة ، وهذا نوع من المشاركة الاجتماعية ، ونبذ التفرقة الطبقيّة ، وتصوير العواطف النبيلة للفقراء واستقراء حياتهم • وكأنه يشير بذلك الى المجتمع بما فيه •

ومن اليونانيين الكلاسيكيين كذلك أرسطوفان وميناندر — وهم من كبار نقاد المجتمع كانوا يظهرون المجتمع بطريقة فكاهية ساخرة ، وكانوا يطالبون بتحقيق العدالة الاجتماعية ونبذ الحروب ، وتحقيق السلام • ومن مسرحياتهم السلام ، والفرسان ، وعيد النساء لاريسطوفان وتحمل كلها صورة صادقة عن المجتمع خلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد •

ثم جاءت الكلاسيكية الفرنسية القرن ١٧ تعمل على تقليد القديم وترجم مسرحيات اليونان والسلاقيين ثم بدأت في تأليف مسرحيات على هذا النمط القديم ومن أمثلتها مسرحيات كورنى وراسين « وفيها تقديس لقانون الوحدات الثلاث » ونجد فيها أن مستوى الابطال أرسطوقراطي ، ويمثل حياة العصور ولشخصيات الملوك وأجواء الامراء والطبقة الممتازة في المجتمع • ولكنها من تقليدها الماضي كانت تمجد الحاضر وتعمل على تصوير المجتمع كما كان في ذلك العهد وما فيه من اقطاع واستداد بالحكم وانقسام طبقي • وكان الفنانين والادباء من تلك الطبقة الراقية أو التي تصاحب طبقة الحكام — فنجد أن الفن والادب في ذلك العهد كان يمثل هذا

المستوى أصدق تمثيل بعيدة عن تمثيل الشعب والطبقات الفقيرة — ونفس الشيء بالنسبة للكلاسيكية الانجليزية وغيرها من الكلاسيكيات التي كانت تختفى بالقديم وتقليده مع عدم اغفال الحاضر بمشاكله والعناية بقضايا الجمال • فالكلاسيكية على هذا النحو كانت تصويرا للمجتمع وتعبيرا راقيا عن مشاكله • وقد قال سانت بييه Sainte Beuve أن الاديب هو الذى يترك تراثا أدبيا ممتازا خالدا •

الفن في القرن الثامن عشر والتاسع عشر :

لقد كان للثورة الصناعية تأثير كبير على الفن في هذين القرنين وقد ظهرت في انجلترا الدعوة الى الاهتمام بالفن في الصناعة وبين الطبقة الصناعية ومرت هذه الدعوة في أمريكا كذلك ونجحت وبدأت المصانع تهتم بتقديم العمل الفنى داخلها •

ويمتاز الفن في هذا العصر : بالبساطة في التعبير الغير معقد كذلك امتاز بتمثيل الحياة الجارية تمثيلا دقيقا ومن فناني هذه الفترة هودن ، وجرو ، وديلاكروا^(١) وظهرت في هذا القرن التاسع عشر فن جديد هو فن العمارة بالحديد والظهر « بناء محطات السكة الحديد — والاسواق والمدن الكبرى » والملاحظ أن الفن في هذا العصر قد أهل تجميل الاثاث والاعوية وغير ذلك مما يستعمل في الحياة الجارية • وأصبحت هذه الاشياء تقدر بقيمة المادة التي صنعت منها سواء كانت من الذهب أو الفضة أو الخشب وقد ظهر خلال القرن التاسع عشر مذهب جديد هو الرومانتيكية شملت كل النواحي الادبية والفنية في المجتمع •

(١) الفن وعلم الاجتماع الجمالى د. عبد العزيز عزت ص ٨٦

الرومانتيكية :

وقد ظهرت عقب الثورة الفرنسية دعوة فنية وأدبية جديدة تعتبر انتفاضة ضد الروح الكلاسيكيين المثلة في الشعوب اللاتينية وشعوب البحر الابيض المتوسط.

ولم تنشأ هذه الدعوة من العدم ، بل مهدت لها فرنسا آلام الشعب وشكواه من النظم الاجتماعية ، التي كانت سائدة قبل الثورة الكبرى ، من ملكية ظالمة ، واقطاع مستبد . ولم تكن فرنسا هي التي تزرع تحت قيودها ، بل كانت الدكتاتورية تسيطر على روسيا وبولندا . وكانت المجر تقاس من الاستعمار النمساوي ، وهكذا الحال في الشعوب البلقانية واسبانيا ، ولذلك عندما قامت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ تدعو الى الحرية والاخاء والمساواة تأكدت الدعوة الرومانسية . بل كانت كاملا في نجاحها . وكان أثر ذلك أن اختفت أوستقراطية الفن والادب ، مع اختفاء ارستقراطية المجتمع وانها رفعها الاعتماد على تقليد القديم اليوم فن وأدب جديد يدعو للحرية والانطلاق وقيادة الجماهير وقد قال فيكتور هيجو « V. Hugo ان الشاعر أصبحت له وظيفتان » .

الاولى : أن يكون ترجمانا لما يسود عصره من آراء وأفكار . وهو اذ يستوحى هذه الآراء من ذاته وقلبه ، انما يعبر عن ذات جمعت في داخليتها الآراء والمبادئ السائدة في المجتمع .

والثانية : أن يغير الطريق أمام مواطنيه ويوجههم الى المثل العليا .

ولهذا كانت الرومانتيكية ثورة فنية خطيرة الشأن ، تقوم على الانتصاف للبائسين من قيود المجتمع ، والنسخت على الشرور ، وبحث أسبابه وهما المعوقان لحرية الفرد ، ومقاومتهم بالرغم من أنهم حملوا كثيرا

على المجتمع وما فيه من مفسد وشور ، ولكن لا ليهدموه وانما ليحملوه على الثورة على الظلم ، والدعوة للحرية والعدالة ، فالدعوة الرومانتيكية كانت الى جانب انها دعوة فنية وأدبية ضد العلم والتقاليد كانت دعوة سياسية جديدة تقوم على مناهض الظلم ، وتتجاوب مع الطبقة البورجوازية في المجتمع وتنادى برفع مستوى الشعب الاجتماعى والخلقى ، والتربوى • وترجع وجوه الفن الرومانتيكى الاوربى الى تفوق الفن الفرنسى ، ولم تكن الرومانتيكية كما كانت الحضارة فى العصور الوسطى أو فى عصر النور حركة عالمية ، بل على العكس من ذلك كانت عبارة عن انتفاض وطنية كما سبق القول ، وخير تفسير لهذا العهد الرومانتيكى هو « أن الرومانتيكية ليست فى اختيار الموضوعات ، أو الحقيقة الواقعة ، ولكن فى طريقة الاحساس وقد قال Louts Réau فى كتابه عن الفنون التشكيلية أن الرومانتيكية Romantisme تمجد حقوق الفرد ، وأنها انتصار للفردية ، والى جانب ذلك فانها تعبير عن انتصار الوطنية وعمما يمكن أن يكون فى الانفرادية من غوضى - وقد وضع Réau الاعمال الفنية داخل وظيفة الفنان ووضع الفنان فى وسطه العائلى والاجتماعى •

وعلى عكس ما قيل أو أعلنه بعض الرومانتيكيين أنفسهم فان الرومانتيكية قد مارست بطريقة عامة مذهب الفن للفن L'art pour l'art وأن الانتفاضية الواقعية بالذات أرادت أن تجعل الفن ذو فائدة • وذلك على النحو التالى :

أولا : فى المطالبة باستعادة حرية الكاتب والفنان ، أى تحرير ذلك الاحساس الذى استبعد طويلا ، وأعطى للمعاصرين فرصة اظهار مشاعرهم وعواطفهم كذلك رأينا كيف كان نشاط الرومانتيكية من أجل احياء الشعور الوطنى أخيرا أمكن اثبات وجود الرومانتيكية الاجتماعية Le romantisme social وفى كتاب شامل ، للمحاضرات التى ألقيت فى السوربون بمناسبة

العهد المئوي المقدمة Cromwell عن الرومانتيكية والآداب — عاليج
G.Bouglé هذا الموضوع الرومانتيكية الاجتماعية على النحو التالي :-
فقد بدأ من مراحل الحكم اللاهوتي أو حكم رجال الدين الى الحكم
الديمقراطي الاشتراكي •

فالرغبة في التغيير التي تولدت عند الفرد تكفى لشرح المتتابع السريع
للمناذج الادبية والفنية • فقد جاءت فترة من الملك ، أصبح الزوق فيها
بالروتين والتغيير الا الجديد بأى ثمن — وهناك أيضا سبب أعمق من تغلب
الذوق ، فالفن هو انعكاس للمجتمع ، وعندما يتغير المجتمع يجب على
الفنان خوفا من الموت أن ينبع الحركة الجديدة ، فللمجتمع الجديد يجب
وجود فن جديد • “A une société nouvelle, il faut un art nouveau”

وقد كان التقدم السريع للصناعة الرأسمالية والعلوم التطبيقية يخالف
المثل الاعلى الرومانتيكي الذي يضحي بالفعل من أجل الشعور • لأن العصر
الآلى لم يكن يساعد على الاحلام والانعزالية ويتجه الجيل الجديد الى
الحاضر ، ناحية الحياة الحديثة • وقد أعلن Courbet أن الرسام
والمصور لا يجب أن يعبر الا على ما تراه عينيه أى أنه يجب عليه الالتزام
بالبيئة المحيطة به ، وهذا اذ أنه للرسم التاريخي والديني — وقد كان هناك
احياء للكاثوليكية في الريف تبعه انتفاضة قوية ضد الدين ونودوا من جديد
كما كان في عصر النور بالظلام الذي ساد في العصور الوسطى ، ومثال ذلك
لوكونت دى ليزل Leconte de Lisle الذي ندد بالعصور الدينية الحقيقية
التي سارت فيها الجماعة ، وكذلك الروائي الشعبي Eugène Sue
الذي حر من في كتابه « اليهودى الجنبول » ضد الكنيسة الكاثوليكية ،
وضد المجتمع المسيحي •

وتغيرت فكرة دور الفن ، وأعلنت الرومانتيكية مبدأ الفن للفن •
وذهب ثيوفيل جوتييه Théophile Gautier الى القول بأن كل استعمال
ممارس لعمل فنى هو انتهاك للحرمة فان الشيء اذا أصبح نافعا لا يكون
جميلا •

“Des qu’une chose devient utile, elle cesse d’être belle

وقد اقتنع الرومانتيكيين بأن الفن يمكن استخدامه في تمجيد الشعور
الوطنى وفي تحريض الشعوب المظلومة على الاستقلال ، وكان فيكتور هيجو
يرى أن الفنان والمؤلف لا يجب عليهما أن يكونا صدى أجوف لوقتتهما بل
يجب أن يكونا الدليل والنبي للوطن وتقدمه •

وقد وسعت الديمقراطية مهنة الفنان ، فالفن لا يجب أن يكون في
خدمة الامة فقط ، ولكن في خدمة الانسانية جمعاء من أجل التقدم
الاجتماعى •

وكتب الناقد Thoré - Burger الذى أحفل جانبا في ثورة ١٨٤٨ يقول
« انهم جعلوا الفن من أجل الامراء وقد جاء الوقت الذى يعمل فيه الفن
من أجل الانسان » •

وقد ترجمت هذه الاتجاهات في فن التصوير منذ صباح ثورة سنة
١٨٤٨ التى ألهمت من قبل Daumier Millet

وظهرت فنون تصويرية وضعف الاحتفالات الدينية في صورة هزلية
عن طريق تمثيلها السخرية ، وكانت الانجيل بدون اله للفن أكبر يد - تلك
الانتفاضة الجديدة كانت جزء من فرنسا وانتشرت في أرجاء أوروبا عن طريق
الحركات الثورية لسنة ١٩٤٨ ثم انتشرت شيئا فشيئا في كل البلدان •

وعمل البريطانيون في ذلك الوقت على اشراك الجمال بالمنفعة ، وعلى
ترفيه الموضوعات الدارجة للحياة اليومية •

ونفس الحالة كانت في روسيا عقب الثورة « وستكلم في ذلك بعد قليل » •

وذكر بوجليه Bouglé ما قيل في صبيحة الايام الثورية لقد رأيت الشعب كبيرا ، حتميا كريرا ، لقد كانوا مجزوبين ، وسكارى سعداء بنومهم في الوحل ويضموهم في السماوات G. Sand

كذلك استشهد بالمؤرخ الكبير الذي ظل مؤلفا كبيرا ، وبالمؤلف الكبير الذي أراد أن يكون فيلسوفا عظيما « ميشلن ، وفيكاتور هيجو — واستبعاد بوجيله ذكرى البؤساء ليفيكاتور هيجو » •

وأعطى بوجليه أخيرا برنامجا للرومانتيكية الاجتماعية الذي وضعه فيكتور هيجو « ان الفن للفن قد يكون جميلا ، ولكن الفن من أجل التقدم هو أكثر جمالا أيضا • ان المؤلف لا يملك نفسه ، وهو ينتسب الى رسوليته، ومكلف بهذه العناية العظيمة في أن يعمل على مسير الجنس البشرى »
“L’art pour l’art peut être beau, mais l’art pour les progèes est plus beau encore .. Le poète ne s’appartient pas, il appartient à son apostolat

ولقد أضاف Réau الى بحث بوجليه في الفنون التشكيلية تكملة هامة من قول miliet المصور هو أن الناحية الانسانية هي التي هزت مشاعره أكثر من الفن •

وقد مدحه Réau لأنه صور الريفيين بحب واحترام — أما دميير Daumier كانت آرائه « ديموقراطية انسانية » مستوحاه من الهجاء السياسى ثم بعد ذلك عندما قيدت الصحافة كان ذلك من الهجاء الاجتماعى • فقد كان أكبر الكاريكاتيريين الذين هاجموا كل الطبقات البورجوازية بقسوة واخلاص •

والحاحه الى الانفعال والانتشار فى الزمان والمكان ليست هى ببساطة انتفاضة فى النظام الجمالى ضد تحكم العقل ، فقد عاشت الرومانتيكية فى كثير من النفوس المرهقة الحس التى نال منها الحب والدين والوطن وكانت من الانفعالات الغير مرضية الى كثير — حتى بدون تدخل الفن •

وهناك أمثلة عديدة للكتاب المصورين مثل فيكتور هيجو ، والمصورون الكتاب مثل ديلا كروا Froueuclou Loiecroix الذين عبرو عن أنفسهم عن طريق الريشة أكثر منها عن طريق القلم — ومن النقد الذى كان يوجه عادة للتصوير الرومانتيكى أنه كان أدبيا بشكل ملحوظ • ولا ننكر الرابطة القومية بين المصورين والموسيقين الرومانتيكين ويعتبر بودليير Paulclere مؤلف أزهار الشك Les Fleurs du mal الكاتب الكبير لهذا العصر الذى كان له معنى القيم التصويرية التى كانت أحكام مصدق عليها دائما من الاجيال التالية ولقد قامت محاولات كثيرة لتعريف الرومانتيكية ولكن ما من تعريف استطاع أن يجمع كل الصفات وأن يتفق مع كل الآراء ، ويمكننا تحديد الاسباب التى أوجدت هذه الصعوبة هى :

أولا : لم تكن هناك رومانتيكية خالصة فان ديلاكروا Dlacroix أكبر المصورين الرومانتيكين كان يعتبر كلاسيكيا ولم يكن له عيب فى ذلك لأنه كان يشعر مثل Cézanne بأنه مخلص لتقليد بوسين Poussin الذى أعجب به كثيرا •

ثانيا : أن الرومانتيكية الادبية لا تختلط مع الرومانتيكية الفنية لأن التعريف الذى ينطبق على أحدهما لا يتمشى مع الآخر •

ثالثا : هناك رومانتيكية عالمية مشتركة بين الدول — كذلك هناك رومانتيكيات قومية وأخيرا: هو أن هناك رومانتيكية دائمة، وأخرى تاريخية •

فالامر هنا يتعلق بحركة محدودة في الزمن أعد لها من منتصف القرن الثامن عشر وازدادت بين ١٨١٥ ، ١٨٤٨ ثم ازدادت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وفي التطور الادبي والفنى لأوروبا فانها وضعت بين تحكم الكلاسيكية التي تتعارض معها ، وظهور الواقعية التي احتلت مكانها فالرومانتيكية بهذا الاعتبار ستكون ظاهرة حديثة ، وصورة غير محددة للتاريخ الحديث .

الملامح المشتركة بين الادب والفن الرومانتيكى :

يرى فيكتور هيجو أن الرومانتيكية الادبية لم تكن في أصلها الاصلى متأخر في مجال الآداب والفنون — للشورة السياسية التي اشتعلت ١٧٨٨ في باريس .

فمثلا مقدمة Cromwell ، ومعركة ايرنانى La bataille d'Hermale ترجع أحداثها الى أربعون عاما بعد سقوط الباستيل والثورة السياسية والاجتماعية الخالصة لسنة ١٧٨٩ لم تؤدي الى تغيير عميق في الادب أو الفن — فهذا التغيير كان يحتاج الى وجود عصيان جديد أو تمرد لكي يكمل عمل الثورة ، لتحرير الكتاب والفنانين بعد أن صدرت المواطنين . وهذه الثورة تتفق مع ثورة سياسية جديدة هي ثورة ١٨٣٠ وهذا بالتحديد ما نسميه الرومانتيكية .

اذن الثورة الفرنسية ١٧٨٩ أعلنت حقوق الانسان وقضت على الظلم والتحايز الطبقي والرومانتيكية أعلنت بدورها حرية الكاتب والفنان والتحرر من كل النظم والقواعد الكلاسيكية التي كانت تعتبر حواجز أمام نمو الشخصية وتحررها^(١) .

(1) Les. Arts Plastiques L'Ere Romantique Louis Réau No.6145.

الفردية والقومية : L'individualisme et nationalisme

ان الرومانتيكية تعتبر انتصار للفردية ، ولكن القومية ليست الا انفرادية جماعية ، فالفرد بعد أن تحرر أصبح يهدف الى الانتماء لجماعة وطنية يشعر فيها بالتساند ، ويدعو عن طريقها الى اسنقلال وطنه كما استقل هو نفسه •

وقد ظهرت في الرومانتيكية موضوعات جديدة لم تطرق من قبل أضيفت الى الادب والفن ، فقد استعادت العصور الوسطى ، والسراب المشرقى والاسلامى ، وشمال أفريقيا •

وذلك عن طريق الغزو الفرنسى للشرق — اذ قدم الشرق ميدانا جديدا للرومانتيكية تستقى منه لأنه كان يحتفظ بحضاراته القديمة •

وهذا سبب القول أن الرومانتيكية لم تكن تعيش في الحاضر فقط بل في الماضى أى بالعودة الى العصور الوسطى والاتجاه الى الشرق Orientalisme

الصفات المميزة للفنون التشكيلية في العصر الرومانتيكى :

من الملاحظ تفوق فن الرسم والتصوير على كل الفنون الاخرى في هذا العصر : وهى فن العمارة ، والنحت ، والفن الزخرفى

L'architecture la sculpture, l'art (décoratif)

وقد نجد بعض الفنون فتقدم في عصر معين ولكن في عصر آخر تختفى تقريبا أو تصبح فنون مضمحلة ففى العصور القديمة كانت الاولوية فيها للنحت — وفي العصور الوسطى كان فن العمارة هو الغالب على الفنون الاخرى كذلك في عصر النهضة نجد تقدم فن الرسم الاخرى ، أى كل من هذه الفنون التشكيلية كانت له أولوية في وقت من الاوقات •

وأهمية الفن الرومانتيكى لا تنحصر فيما أعطاه لبعض الفنون الوضعية التى كانت مضطرة في الكلاسيكية من أهمية ، ولكن أيضا بسبب التجديدات

الفنية ، علما بأنها لم تجدد فن التصوير بالزيت • فهذه الثورة كانت خاصة بالتأثير بين والتأثير بين الجديد •

Les impressionistes et aux Neo-impression-nistes

كذلك كان التصوير المائى يستعمل منذ القرن السادس عشر على اليباس لى يرفع مستوى التصوير ، ولقد ظهرت كلمة water -colour society فى انجلترا فى منتصف القرن السابع عشر ، أما فى فرنسا فقد استخدمت هذه الكلمة فى ازدهار العصر الرومانتيكى ١٨٢٩ وقد ألفت أنصار التصوير بالحياة فى انجلترا جمعية سموها

كذلك حققت الرومانتيكية تقدما ملحوظا فى مجال الفنون التخطيطية ، كما يعتبر فن الحفر على الخشب مثل آلة الطباعة اختراع من القرن الخامس عشر ولكنه أهمل فى نهاية عصر النهضة ، وقد عاد فى انجلترا على اليباس وذلك فى نهاية القرن الثامن عشر وظهرت الفوتوغرافيا وهى اختراع فرنسى ظهر سنة ١٨٣٩ على يد Niepce et Dagurre ولكن على الرغم من أن هذا الاختراع يرجع تاريخه الى العصر الرومانتيكى فان أثره على فن التصوير لم يبدأ فى الظهور الا منذ انتصار الواقعة^(١) •

أما الادب الرومانتيكى فالجانب الاجتماعى واضحا فيه كل الوضوح ولا يعنينا أن يتخذ شكل هجوم أو تعقيد • فقد رأينا شاتويريان Chateaubriand يصور فى رواية « رينيه René » آلام الحياة ، وروح العصر الثائر المضطرب المنعم بالمقطن وهو عصر الثورة الفرنسية ، الى جانب نواحي من حياة الكاتب نفسه •

(1) Ibid.

كذلك لامارتين "Raphael" Lamartine في رواية رافائيل يرسم صورة النموذج التام للرومانسى المتأثر بانقلاب الثورة وبأحداث امبراطورية نابليون وما تلاها من تغيرات اجتماعية ، وفيها يعنى بالمسائل التى تشتمل المجتمع أو تتصل بمستقبل حياته بل اننا نراه يشارك فى الحياة العامة أيضا • أما فيكتور هيجو فقد كان يعتبر المرأة الصافية التى ينعكس على صفحاتها عالم برزت خلاله أعماله الى جانب عاطفته الذاتية وخاصة فى الرؤساء « وفيها يدافع عن نفسه البؤساء والضعفاء والمضطهدين ويدافع عن الحرية » •

هذا فى فرنسا أما فى انجلترا فكانت أعمال شكسبير أكبر معبد عن الرومانتيكية وشمل أدبه صور صادقة عن الكوارث والحن التى نزلت بالامة الانجليزية بسبب الحروب الداخلية ، ويظهر هذا فى رواية « هملت » « وتاجر البندقية » وغيرها كثير مما تتمثل فيه الروح الاجتماعية وكلها الى جانب كوميدياته تصور المثل الاجتماعية العليا تصويرا دقيقا وتتغلغل بعمله فى صميم المجتمع •

من هذه الامثلة القليلة يتأكد أن الرومانتيكية لا تخرج عن كونها تيارا فرضته ظروف اجتماعية خلقت أوباعه وحنانين ضاقوا ذرعا بالقديم ، فناروا عليه، وسفروا بالحاجة الى أسلوب جديد فى التعبير لا يطفى على شخصيتهم فأكدوها بابرازها فى أعمالهم الادبية والفنية^(١) •

ونهاية الرومانتيكية وبداية الواقعية تتفق مع فترة من الهدوء واليسر الاقتصادى ومع برجوازية سعيدة ولكن البروليتاريا لم تكن راضية فقد

(١) الادب والمجتمع ص ٨٦

تغير الوسط والفن كما قال ريو انعكاس للمجتمع ويتطور معه : فالفن كما قال ريو^(١) .

“L’art est le reflet de la société”.

“L’art a évolué avec la Société elle-même”.

الواقعية في الفن والادب :

وتعتبر الواقعية ثورة على الرومانتيكية ورد فعل لها وان لم تقم على أنقاضها وانما سارت معها جنب الى جنب مع بزوغ خبر التقدم العلمي الضخم في القرن التاسع عشر وازدهار الحياة الاقتصادية بفضل التقدم . وقد دخل الادب والفن عامة في تجارب المجتمع وواقعه الملموس فقد كان لزام عليهما أن يسيرا التقدم الفكري وأساليب الحياة . وهذا الى التيار العلمي والاجتماعي يوجد صورة جديدة لمجتمع يسوده تفكير غير التفكير القديم وأحلام جديدة وهكذا نشأت الواقعية تكشف أسرار الواقع وحقائقه وتتعمق في فهم مشكلاته . فكانت تصور المجتمع بما فيه من عادات وتقاليد، وما فيه من مشكلات اقتصادية أو خلقية أو دينية وغيرها ومن هنا كانت الواقعية تنقسم الى قسمين — قسم يدعى بالواقعيين المتشائميين ، في الغرب ولوحظ فيها أنها تبرز بعض الصفات الغير محبوبة كالاثرة ، والقسوة ، والظلم والطمح — أي كما قال الفيلسوف الانجليزي الواقعي « هويز » فكانها تفسر الحياة تفسيرات خاصة وتراها من خلال منظار أسود وترى الشر هو الاصل فيها .

ونرى ذلك في بعض أعمال بلزاك Balzac ، وفلوبير ، وموباسان ، في فرنسا وشارلز ويكنز ، وشريدان في انجلترا .

(١) الفنون التشكيلية . Louis Réau

ولكن أعمال هؤلاء كانت تبرز ما هو مطبق في النفس الفردية وما تتأثر بها من عوامل البيئة الاقتصادية والسياسية والخلقية • والانسان فضلا عن الفنان ابن بيئته ومجتمعه •

والى جانب ذلك نجد في الفن والادب الراقص انعكاس صادق لما يكتنف المجتمع من مشاكل باعتبار أن معرفة الواقع ، هى خير وسيلة للسيطرة عليه واصلاحه وهذا يوجد بصفة خاصة في أعمال بلزاك الذى كان يمرض حين يحلل المشاعر على ربطها بالاموال الاقتصادية والاجتماعية ، التى تنير وتسبب هذه المشاعر • فكان يصور الحياة الانسانية من جانبها الجدى القاس ، كما فى قصة « الاب جوريو » التى يصف فيها الشرف بأنه طعام الحمقى وانك لكى تنال ما تريد ينبغى لك أن تتفجر بين الناس كقنبلة أو تنتشر بينهم كوباء (١) •

وهو فى أعمال أخرى له ، يحدد طبائع الطبقات ، من خلال عرض المشاعر الفردية لشخص ، ويتتبع تاريخ العادات والافكار الخاصة بعصره كان يزخر بالتغيرات السريعة • ولا عزو فقد كان يدعو الى الاشتراكية الاجتماعية التى تحقق للمجتمع أحلامه •

مثل هذه المواقف نجدها عند فلوبيير Flaubert موباسان • ففى قصص مثل مدام بوفارى ، سذاجة القلب والتربية العاطفية • يصور فلوبيير Flaubert عصره بجميع مشاكله العاطفية ، والاجتماعية ونماذجه الخلقية والنفسية •

وفى انجلترا نجد لتشارلز ديكنز أصدق وصف وأعظمه للمجتمع الانجليزى ، فقد نظر ديكنز اليه نظرة مستوعبة ، وعكسه فى انتاجه لما رأى الفساد قد استشرى والفقراء حرى البؤس والقسوة وأن عليه مسألة أمن

(١) الادب والمجتمع ص ٩١ •

بها وينبغي الدعوة لها وتطبيقها آمن بها ، لأنه نشأ فقيرا ، ورأى والده يدخل السجن لعدم تسديد ديونه ، شعر بذلك فابعد تصوير البؤس في تحكم وسخرية^(١) كذلك كان المال في مسرحيات مدرسة الفضايح التي تعتبر من أبرز المسرحيات التي تصور السلوك الخلقى لفئة من المجتمع الانجليزي في النصف الاخير من القرن الثامن عشر عقب الثورة الصناعية - أما القسم الثاني من الواقعية تسمى بالواقعية الاشتراكية أو واقعية البناء وهي التي نشأت في المجتمع الاشتراكي الشرقي قبل وبعد تكوين نظام الحالى وهي واقعية تعنى بتصوير المجتمع من جميع نواحيه • وذلك تبعا لما يفرض نظام الحكم أو يعتنقه على الاقل ويرى عليه النشء الموهوب أدبيا •

وسواء لدينا واقعية الغرب أو واقعية الشرق ، فكلنا هما تعنى بالمجتمع في المحل الاول وتعكس ما يكتنفه من ظروف سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية ، قد تطبعها الرأسمالية في الغرب بطابع أكثر تفاعلا وصراعا على العيش بين الافراد ، مما يجوز معه تغلب صفات الشر أحبانا على صفات الخير ، في حين أن هذا الصراع قد زالت حدته في اشتراكية الشرق ولذلك لم يجد الفن من الصدق أن يصف هذا المجتمع بنعمة مشابهة • هذا ما وجد في الفن والادب الروسى قبل ثورة أكتوبر ، من بشرىات مزدهرة وحيياة أسعد •

والذى يهمننا أن اللونين من الواقعية لا يغفلان جمال الاسلوب ، أو المحق في التكنيك أو العلاج الفنى ، وهذه السمات ظاهرة ، على الرغم من اختلاف الاساليب بين اليمين واليسار •

اليمين واليسار في الفن :

وإذا نظرنا الى الفن من حيث مضمونه أى من حيث روحه لا من حيث موضوعه - فهل يمكن أن نفرق بين فن يمينى وفن يسارى ؟

وهل نقول مثلا أن الفن الواقعي ظن الفن اليساري ، أما الفن اليميني فهو ما ليس كذلك ولكن ما يسمى بالواقعية في الفن إنما يتعلق بالموضوع لا بالمضمون ثم إن الفن من الممكن اعتباره كله واقعيًا ، أو كله غير واقعي ، فإذا قلنا أن كل ما يحس الإنسان فهو من واقع الإنسان ، كان الفن كله واقعيًا ، أما إذا قلنا إن الواقعية هي التقيد بالواقع الموضوعي فالفن كله غير واقعي . وإذا قلنا إن الواقعية هي استلهايم الواقع ، كان علينا في هذه الحالة أن نفرق بين مصدر وحى الفنان ، وصورة العمل الفني في ذاته مثال ذلك بيكاسو في جبرنيكا لا يمكن أن نصفه بالواقعيين بالمعنى المتعارف عليه لهذا اللفظ .

الواقعية لا تصلح إذن أساسا للتقسيم :

فإذا قيل أن العبرة في الفن هي بحق وضع العمل الفني من أجلهم أهم الفئة المحفوظة أم الطبقات الكادحة — كان علينا في هذه الحالة أن تميز بين معتنى العمل الفني أو المكلف به ، وبين هذا العمل الفني ومضمونه الحقيقي فقد نرى أن السلطة التي كانت تستخدم الفنان المصري كانت سلطة رجعية ، ولكن من المستحيل علينا أن نصف روائع الفن المصري القديم وروائع ميكلانجلو بهذه الصفة . وكذلك الأمر فيما يتعلق برواية الفن الإسلامي ، ومنها مسجد السلطان حسن الذي وصفه الاستاذ يحيى حتى بقوله « لم أنس إلى اليوم شهقة قلبي حين دخلت أبوابه المرة الأولى . . » . فلنعد إذن إلى النظر في الفن من حيث مضمونه الحقيقي . وبوسعنا بالطبع أن نصف الآثار الفنية على أسس مضاهينها تصانيف شتى .

ولكننا كما « سبق القول » نميز في تاريخ الفن بين تيارين — التيار الكلاسيكي الذي ينشد الصفاء والسكينة — والتيار الرومانتيكي الذي يعبر

عن توتر وتدقق وجيشان ونحن نستعمل هاتين الصفتين بمعناها العام ،
فتقول مثلا أن الفن المصرى القديم والفن الاغريقى فنون كلاسيكية
وبالرغم من الاختلافات الهامة بينهما • على حين أن فن ميكلائنجلو وجويا
وديلاكروا Delacroix وفن فان جوخ فنون رومانتيكية •

وبالطبع لا يخلو فن من انسجام ، كما لا يخلو فن من توفد ولكن العبرة
هنا هى بالطبع الغالب •

وقد يقال أن الروح الثورية غالبا ما تتمثل فى فن رومانتيكى أو لكن
ما دام الفن لا يكون فنا الا بقدر اثره لروح الانسان فلننا ندرى كيف
كيف يمكن لفن جدير بهذا الاسم سواء أكان رومانتيكى أم ثوريا — أن
يتصف بالرجعية •

فاذا كان هناك فن رجعى فهو الفن المعروف بالأكاديمى — انه فن
رجعى لأنه بحكم كونه فنا مفتعلا لا يمكن أن يثرى الروح الانسانية ، وهو
رجعى سواء معنوية العظة أو دغدغة الحواس ، وسواء أكان موضوعه
فينوس أم مريم العذراء أم عاملا يرفع مطرقتة •

يبقى بعد ذلك أن نعترف بأنه وان كان الفن يتجاوز حدود زمنه ، الا
أن الفنان لا يعيش خارج التاريخ • فهو ينتفع بلا جدال بروح عصره ولكن
أين يمكن أن نقرأ روح عصر من العصور • بأن لم نقرأها فى آثار شعرائه
وفنانيه ؟ نظرنا الى عصرنا هذا ، رأينا فى بعض البلدان فنا عن أبرز صفاته
طابع بالبحث والتنقيب والتجريب ، فاذا اعتبرنا أن هذا الطابع يعبر بالفعل
عن روح العصر واذا كنا ممن يعتقدون أن التقدم الفنى يتضمن التعبير
عن هذه الروح ، كان بوسعنا أن نقول أن هذا الفن فن تقدمى ••• هذا على
حين نرى فى بلدان أخرى فنا يلتزم أصحابه بالمواضيع الاجتماعية ، غير أنهم
يعالجون هذه المواضيع بأسلوب أكاديمى مفتعل ، فهو اذن من حيث مضمونه
فن لا روح فيه ، ومن حقنا أن نصفه بالرجعية •

ولقد أدركنا منذ كارل ماركس مدى تغلغل سلطان الاقتصاد في حياة الانسان ومدى تأثيره حتى على أيديولوجياته ومثله العليا • ولكن حلم كارل ماركس كان هو تخليص الانسان من هذا السلطان • بل من كل سلطان • وقد كتب ماركس ومساعدته في الفن والجمال ولكن قليلا ، ووضع كل من مينون Ickorvievz, Maignon علوم جمال ماركسية بالاضافة الى رافائيل الذي نجح في ذلك كثيرا • وقد انضم رافائيل الى المعركة الماركسية وكان يرى أن مؤلف « مبدأ الفن » واتجاهه الاجتماعي ليس الا ممثلا لروح البورجوازي الصغير ، ولروح الفلاح الفرنسي الجمهوري في سنة ١٨٥٠ •

ولكن ماركس أقام علم الجمال أو الفن على الناحية المادية اذ كان يرى أن الاقتصاد يحدد كل الايديولوجيات والفن مثل الآخرين ، أي أن مبدأه في هذا العلم هو مبدأ مادي ولكن هناك شواهد كثيرة تمنع اتفاق المادة مع الأعمال الفنية فان فن مثل الفن اليوناني السامي عاش في اقتصاد وضع •

ولكن رافائيل كان يعتقد أن اليونانيون في صراع دائم مع الطبيعة ، بينما حياتنا الآلية لا تبقى لنا الا الصراع الطبقي أي الصراع بين الطبقات الكثيرة التي لا تعتبر مخصصة للفن • بالاضافة الى أن المثل الأعلى اليوناني لم يكن طبيعى ومطلق في كل العصور ، ولكن فقط في أوقات الازمات التي كانت لها أسباب اقتصادية •

وطبق رافائيل هذه المبادئ على فن بيكاسو الذي يعتبره رمز للبورجوازية الحالية اذ كان يرى أن تشكيل Seuret يتجمع في صورة المجتمعات المتشابهة ، وفي تطور فن بتكاسو نحو الاشكال الهندسية للوجوه ، ونحو الفن الزنجي الذي يعكس الانتقال من الرأسمالية الحرة الى الالتزام والسياسة الاستعمارية • كذلك فالفرق الكبير بين تواريخ الاحداث يمنع

ملاحظة أن الازمات الاقتصادية تتفق مع النهضة الخاصة بالفنون ، وهذا يكفي لأن ننسب للنشاط الفني حياة أكثر نوعية^(١) .

ولكن رافائيل بأسم مبدأه لم يرى عن قرب الدور الذى يلعبه مشجعي الفنون والآداب الذين تحولوا الى نجلر للصور والنحت فى هذا العصر .
ولكن ذكفى أن نطبق المنهج الماركسى على كارل ماركس نفسه لندرک مدى تأثيره فى علمه بروح عصره .

وإذا ما ألتحت المشكلة الاقتصادية فى مجتمع ، كان من الطبيعى أن نتوقع أن — يقوم فيه رعاة ينادون بتعبئة جميع الافراد من أجل حزقة الانتاج — ولا جدال فى أن مجتمعنا هذا شأنه فى أمس الحاجة الى جهود صادقة جبارة ، سواء فى ميدان التخطيط ، أو فى ميدان التوعية أو فى ميدان النقد الاجتماعى — ولكن لا جدال كذلك فى أن المجتمع أيا كان شأنه فى حاجة أيضا الى من يذكره على الدوام بروح الانسان . اذ ما ينفع التصنيع وزيادة الانتاج وضبط النسل وتلبية حاجات الاستهلاك أما لم يكن وراء ذلك كله غايات أخرى لا تمت الى الاقتصاد بأى سبب من الاسباب . ثم أنه ليس بوسع الفنان حتى اذا أراد — ما لم يكن رساما كاريكاتيريا مثلا أو ملحن أناشيد أن يساعد على تحقيق أى غرض من أغراض الاقتصاد .

على أن كل ذلك لا يعنى أنه ليس بوسع الفنان اذا شاء أن يختار موضوعا اجتماعيا ، بل بالعكس فان فنانا مثل « دمييه » Daumier يمكنه أن يكون له دور فى مجتمع حديث — ولكن دمييه ، لو ظهر فى هذا العصر فأغلب الظن أنه سيختار أن يكون مخرجا سينمائيا لا مصورا ، لان

(1) Raphael : Trois Etudes sur la Sociologie de l'Art L'année sociologique T.111.

السينما - بفضل قدراتها الخاصة واتساع جمهورها - قد أصبحت خير ما يصلح لتناول مشاكل المجتمع .

الا أن السينما أيضا ، فيها ما يقرب من الفن المرائع ، كما أن فيها ما ليس من الفن شيء . فقد تناول أيزنشتاين مثلا مواضيع اجتماعية تؤثر فينا وفي نفوسنا في اليوم . ولم يكن ذلك حال من أتوا بعده من المخرجين . لفنى أولئك الذين انتهجوا بدعوى ارشاد الجماهير وتوعيتها - أسلوبا سقيما يوازي الاسلوب الاكاديمي في الفن ، فلم ينتموا شيئا يؤيه له ، ولا نظن أنهم أثروا تأثيرا حقيقيا في نفوس الجماهير التي ادعوا توعيتها . ومثل هذا يقال بالطبع في كل انتاج مفتعل أيا كان هدفه ، وأيا كان مصدره .

والخلاصة أنه اذا جازلنا تطبيق مفهوم التقدم والرجعية على الفن ، فينبغى أن يكون مقياسنا الوحيد في الحكم ، هو مدى ما ينطوى عليه هذا الفن من عاطفة ، ومدى مساهمته في اثراء روح الانسان ثم مدى تعبيره عن أعماق عصره^(١) .

وإذا نظرنا الى الفنون وتأثرها بثورة من الثورات الاجتماعية والسياسية التي تحدث أو حدثت في العالم نجد أن للفن يد كبير في احداثها بالاضافة الى تأثيره وتطوره تبعا لهذا التطور الاجتماعى والسياسى . ولقد كانت الثورة الاشتراكية في روسيا والثورة الفرنسية أكبر مثل على ذلك وعلى مدى تطور الفن وتأثره بها .

الفن والثورة في روسيا :

نجد أن في حكم نيقولاى الاول تدفقت موجة من الوطنية . فقد أثار السلافيون حماس الجماهير الوطنى الذى أيقظته الحرب الوطنية سنة

(1) Ibid p III .

١٨١٢ • كذلك أثبتت الحرب الاجرامية في سنة ١٨٥٥ أن الحضارات الغربية ما زالت هي الاعلى دون منازع ، على الاقل من وجهة النظر المادية للقوة الروسية ، ولم تكن قد ماتت بعد الساعة التي تتحقق فيها أحلام العناصر السلافية ، من هنا ظهر عدم الرضى في أوائل حكم ألكسندرا الثنائى ، وقد اختفت المطالب الوطنية أمام المطالب الاجتماعية التي لم تتوقف عن اثبات وجودها •

وقد لاحظ الصحفيون والكتاب أن انحدار روسيا ترجع الى الحالة الاجتماعية المتأخرة وكذلك الى الفوضى التي صاحبت الغناء الرق الذى منحه القيصر ألكسندر^(٢) سنة ١٨٦١ أن تلك الثورة السياسية والاجتماعية هي التفسير للاتجاه الجديد للادب والفن الروسى • فقد وضع فن التصوير نفسه تحت رعاية الادب • وقد عمل على اثاره اهتمام الحكومة والشعب والوشاية بالاشرار ، والمساهمة على التقدم بطرقته الخاصة التي لم تكن أقل تأثيرا لأنه يحارب بسلاح أقوى من الصوت - وهو الصورة - فالصور مثل الكاتب ليس له الحق أن يبتعد عن الجماعة بل يجب أن يدرك واجبه الوطنى ويندفع فى المقاومة فى مركز الطليق •

الانشقاق سنة ١٨٦٣ وجماعة العروض المتجولة : Les Ambulants

ولكن ما هي الوسيلة التي يصلوا بها الى الشعب وتطور فن التصوير ؟ يجب القضاء على الاكاديمية التي أصبحت مدافعة عن الروتين ومحافظة عليه •

وكانت هناك واقعة عجلت بهذا الانشقاق التاسع من نوفمبر سنة ١٨٦٣ عندما رفض مجموعة من طلبة الاكاديمية أن يتناولوا موضوع المسابقة

(1) Le Réalisme Social - Louis Réau L'Art Russe.

المقترح « الآلهة والمهالا » • فقد رفضوا ذلك وكونوا جماعة على نمط جماعات أصحاب الحرف التي تقوم على مبدأ التضامن واتخذوا لهم اسم L'Asiel des artistes

من هذه الجماعة العاملة خرجت في سنة ١٨٧٠ جماعة العروض المتجولة التي جئعت حولها كل القوى الشبابية والتي فرضت ارادتها على الفن الروسى خلال عشرون عاما فحتى سنة ١٨٩٠ تقريبا •

وحتى ذلك الحين كانت الحياة الفنية مركزة في العاصمة تقتصر على استعمال الخاصة • وكان غرضها هو أن تشترك معها جموع الشعب كله وليست موسكو فقط ، وذلك في انتقالها من مدينة لأخرى ، في كل الاقاليم ، تنقل معها المعارض التي كانت قادرة على سكان بترسبورج •

ولكى يحصلوا على اهتمام تلك الجموع الشعبية الهائلة ، فإنه يجب على المتجولين أن يتكلموا لغة الشعب ، أى يتركوا اللهجات المستخدمة في الاكاديمية ، والموضوعات الغير مفهومة والآثار الاجنبية ، فيجب وجود تأثير قوى لخلق الانسجام والثورة •

انها الحياة الحديثة التي طرأت على أول فكر — وبالتالي فإن التصوير الدينى ، والتصوير التاريخى أصبحو مبعدين في الخطة الثانية لصالح التصوير الذى أصبح مع الكاريكاتير الآلة الموفقة في الدعاية أو فى النقد السياسى والاجتماعى •

فن التصوير الدينى :

وبالرغم من أن البيئة كانت تتفق مع التصوير الغير دينى أو الغير كنسى الذى ظهر فى هذا العصر ، فإن التصوير الدينى لم يختفى تماما من الاعمال الفنية • ولكنه تطور لبقى وذلك بانفصاله شيئا فشيئا عن التقليد والعقيدة •

الطابع المقدس للالهة وذلك تحت تأثير سترأوس ، ورينان ، وتولستوى • وقد عبر نيقولاس في أعماله الدينية عن نفس الفكرة • وهو من أبناء المهاجرين الفرنسيين الذين أقاموا في روسيا في عهه كاترين الثانية • والتقى في روما مع بايفاتوف وتأثر مثله بسترأوس ثم اتصل بتولستوى الذى عمل مترجما له •

فن التصوير التاريخى :

لقد دخل التاريخ القديم والمعاصر في برنامج المتجولين في حالة ما اذا كان هذا التاريخ خاص بروسيا • لأنه وحده الذى يهم الشعب وكانت موضوعاتهم المفضلة تلك التى تجدد روح المقاومة والثورة ضد المستيراد فقد أراد المتجولون أن يدخلوا الفن بين الشعب وذلك عن طريق تنظيمهم المعارض من مدينة لأخرى •• وقد أصبح فن التصوير شكل من أشكال الصحافة التى تدعو الى ابطال الرق عن طريق الصورة ، والى احتقار الكهنة الذين يتهمونهم بابقاء الفلاحين في جهل واعتقادات باطلة وفي أنهم ظلوا (خرافا) وخداما للاوتوقراطية •

فن تصوير النوع :

ان تصوير النوع هو المفضل دائما بالنسبة للشعب الغير مسرف ، الذى لا يهتم الا بالموضوع ، ويفضل مقالة في جريدة عن قض ، والاحصوصة عن التاريخ ، وقد أظهر هذا الاتجاه كل من Fedatow Nenetsianop ، ولكن أحدهم عمل على اظهار المناظر المألوفة في الحياة الريفية ، واكتفى الآخر بالسخرية بطريقة ساذجة من الموظفين المنحرفين والبائعين •

وتصوير الاخلاق والعادات عند المتجولين له طابع آخر ، انه عملية Fonctionnaires الاتهام للحكومة والمجتمع ، وقد يكون برنامجا للاصلاح

أو نداء للثورة **Révolution**

والمتوقع أن نجد في الفن الروسى لنداء الجيل كاريكاتير سياسى جساوى تقريبا لـ Daumier ولكن الرقيب الامبراطورى كان قاسيا عن رقيب لويس فيليب ولا يحتمل تلك الجرأة • فان شخصا مثل Daumier كان يرحل سريعا الى سيبيريا ولا يعد •

وقد كان للمتجولين الفضل في تجميع الفنانين للمرة الأولى في شركة توجههم نحو مثل أعلى عام وهذا المجهود الخاص بالتنظيم والترتيب الفنى شىء فريد في سنوات الفن الروسى ، وقد جاهدت الجمعية لخلق فن يشعر روسيا بها ، ودفعت الشعب الى الاهتمام بالفن • وبفضلها عادت الرابطة بين الجمعية الوطنية التى انقطعت منذ عهد بيد الاكبر • وقد وثقوا في خلق « فن روسى » ولكنهم أضلوا بسبب نظريتهم عن الفن النافع مشدودين الى الاهتمام بالادب ، فضحوا بالشكل من أجل الموضوع ، وبالفن من أجل الدعاية ولم يضيفوا شيئا الى تاريخ الفن « التصوير الوطنى ، وفن التصوير الهادىء ، والتصوير الكنسى •• » وكانوا يفضلون التصوير القصير •

“L’Art pour l’Art”

الفن للفن

وهو مذهب جديد بالنسبة للفن الروسى •• ولم يكن انشقاقا مثل السابق ولكنه تقابل ثانى سمي « عالم الفن » أسس في سنة ١٨٩٩ أسسه ألكسندريينوا ، وسيرح وبافوليف ، وهذا العالم الفنى الجديد يدل على أن الجيل الجديد أصبح يهفوا الى أن يمد عالمه الى ما وراء العالم الروسى وأن يكتمل في الفن الاروبى ، وحل المثل الاعلى الصالحى محل المثل الاعلى السوفيتى •

وهذا التعبير يفسر عن طريق أفراد هذه الجماعة — فقد كانوا ينتمون تقريبا الى طبقة اجتماعية أعلى عن طبقة المتجولين ، فليسوا أفرادا من

الشعب الذين كانوا عبيدا وأبناء الكهنة ، والاطفال اللقطاء الطبيعيين ولكن ممثلين على البرجوازية المثقفة ونخبة المثقفين ونلاحظ فيهم كثرة عدد اليهود •

لقد أخذ هؤلاء الجانب المضاد لقانون المتجولين فقد كانوا يعتقدون أن الرسوم ليس موضوعه تمثيل الحياة الحديثة ، ولكنه لجأ على العكس من ذلك الى الماضى برغبته ، فأجرى جرائدهم مثلا تسمى السنوات المزمنة ، ويروق في القرن السابع عشر جاذبية لا تقاوم •

وقد كانوا يعتقدون أن الموضوعات الروسية ليس وحدها التي تستحق المعالجة كذلك موضوعات المتجولين تبدو لهم ذات أهمية ثانوية ، والذي يبرز أمامهم هو الصفة وحسن الأداء • وأخيرا فانهم كانوا يرون أن التصوير قد دخل الطريق عندما وضع نفسه تحت رعاية الادب والاسوأ من ذلك هي الصحافة ، خالصة في نظرهم يتضاءل أمام ادارة الرعاية ، وأمام الخيال الواسع للفن الاجتماعى يجب أن نضع مواهب الفن للفن •

وقد أدت هذه الانتفاضة الى تحول كل القيم ، فقد عادوا الى الصورة الطبيعية والديكور البسيط • كان ذلك قبل الحرب بسنوات •

جيل ما قبل الحرب : في الوقت الذى اندلعت فيه الحرب العالمية سنة ١٩١٤ التى أودت بروسيا المهزومة الى الثورة ظهر جيل جديد من الفنانين لهدف الى البراءة والتحرير المعبر للرسم •

لسوء الحظ أن ثورة سنة ١٩١٧ قد شتت هؤلاء الفنانون خلال العالم الواسع وذهب أكبر جزء منهم الى فرنسا حيث تابعوا جهودهم في ظروف قاسية هذا الفن الخاص يشتمل على تاريخ الثورة البوليفيشية أكثر مما اشتمل عليه المهاجرين الفرنسيين بعد الثورة •

فن العمارة :

عشية الثورة البولشفية كان الفن أرسقراطيا ميال الى الكلاسيكية على هامش هذا الفن الحرفة ظهر فن ريفى خنقه الاصلاح الخاص مبير الاكبر •• ونهضة الفن الشعبى هى طابع هذا الفن — ثم تكونت طبقة من الفلاحين العمال يسمونها فى روسيا Koustaris — وهو اسم يرتبط فى اللغة الشعبىة بكلمة Koust — ولكنه يشبه تعبير ألمانى Kunsther فنان — ويفسر هذا بالمناخ والظروف الاقتصادية لروسيا • ولكن وجود الـ Kustin كان يناهض تقدم الصناعة فى روسيا •

الفن البروليتارى :

L'Art Prolétarien

فن الطبقة العاملة

وكان للثورة البولشفية سنة ١٩١٧ أثر كبير على الفن فى روسيا • فمئذ انتقال العاصمة الروسية الى موسكو لتحتفى من الغارات انتهى العهد البترسبورجى الذى استمر منذ أكثر من قرنين وفقدت مدينة بترسبورج مركزها وأصبحت مدينة لينين • وحرسى من البلاط والمهاجرين الاجانب الذين أعطوها شخصية عالمية ••• فى نفس الوقت عمل السوفييت المنتصرين على انهاء الفن البورجوازى ، الخاص بالهواة وبالحكام الصينين لبترسبورج لكى يقوم وكأنه فن بروليتارى • هذا الفن الجديد يجب أن يبدو يبعد عن الحاضر دون أن يهدم الاثار القياسىة التى تعتبر سجلا لعهد مضى •

الاحتفاظ بآثار الماضى :

لقد هاجر السوفييت للحد من الافراط الثورى فى تخريب الآثار والتحف القديمة وانهم أخذوا مقاييس للمحافظة التى كانت فعالة فى المدن وعديمة التأثير فى الارياف • وأصبحت الكنائس عالية وتحولت الى متاحف فنية •

أو مادية غير مهدمة وعلى عكس ما حدث في فرنسا من تخريب للآثار الفنية فقد حافظ السوفييت على تماثيل ومخلفات القياصرة • أى أن الثورة الروسية البولشفية تعتبر أقل افسادا للتراث الفنى لروسيا عن ثورة سنة ١٧٨٩ بالنسبة للفن الفرنسى •

ولقد أنشأت لجنة فى سنة ١٩١٨ للحفاظ على هذه الآثار المصورة ودراستها فى روسيا • وأعيد تنظيم المتاحف من جديد طبقا لخطة أساسية • • وقد بيعت عدة لوحات قيمة لكى تحول للدعاية الاشتراكية فى الخارج • واحتمى الفن الدينى فى الكنائس ولم تباح دخولها للحفاظ على هذا التراث الفنى •

خلق فن سوفيتى :

من السهل نسبيا أن نحمل بقايا الفن الماضى ومن الصعوبة خلق منه فن أصيل على الانقراض يناسب حالة جديدة من الحضارة • وازداد تعقد هذه المشكلة بسبب المهجرة الجماعية لخير الفنانين الذين انتشروا فى العالم كله هربا من الخداع والمجاعة ولجأ البعض الى براج وبرلين ولنودن ونيويورك ، ولكن أكثرهم ذهب الى باريس التى أصبحت عاصمة الروس البيض ، فهناك أوكسندر بينوا وغيره من فنانى عائلته فى كل نوع من الفنون وبقيت العناصر الحمراء فى روسيا واضطرت أن تضع أساسا لفن بروليتارى • وكما هو معتاد فى تطور الحياة الفنية فان مندوبى الشعب وجدوا فرعين الى العودة للبرنامج الذى وضع منذ ٦٠ عاما من قبل بواسطة المتجولين Les ambulants والمبدأ الاساسى هو أن الفن لا ينظر اليه كغاية فى نفسه أو كلعبة أو لذة جنسية ولكن كوسيلة للتعبير عن الحياة الاجتماعية • فليس معنى أو سبب وجود الا اذا كان نافعا واذا استطاع أن يخدم مثل المسرح والسينما فهمى تقوم بالدعاية الثقافية والسياسية •

وقد خضع الادب لنفس نظام الفنون التشكيلية • ومضى عهد الانعزالية ، فليس للجانب للكاتب الحق أكثر من الفنان في البقاء محايذا بعيدا عن المعركة بل يجب أن يساهم بعمله في النشاط الاجتماعي •

وتبع الشعر الاورستقراطي شعر مقاتل ، يعلو الى سمع الجماعات الشعبية ولا يخشى مهاجمتها - تلك القوى المحركة النافعة يصحبها قطعا تجديد شامل في الموضوعات فالبروليتاريا المنقرة لا يهملها في شيء رائحة الورد وضوء الفجر الذي تتمتع به البورجوازية الخالية والموضوعات التي تلتهمهم منذ الآن هي السياسة الاقتصادية الجديدة ، وثمان الخبز وتطهير الجانب الاشتراكي •

وكما أن الشعر والفن وضعت في خدمة الدعاية السياسية والاجتماعية كانت تهدف الى الاندماج في الصحافة الوطنية فان فن التصوير مكره أن يتجه نحو الاعلام الشعبية حتى يضمن له البقاء •

وقد عرف التاريخ حتى الآن أشكالاً من الفن الملكي والاورستقراطي والبورجوازي ، وكلها من الثورة وفراغ الطبقات المثقفة ، والمسألة الآن هي معرفة ما اذا كان الفن البروليتارى محتلم أو هل سيقبل وجوده ، أو ما اذا كان يركنه أن يتخطى المستوى الاولى للفن الريفي • حتى الفن الريفي يجب على بقايا الفن الحضري الذي هو حالة متأخذة منه •

وفن العمارة كان في السنوات التي سبقت الثورة مباشرة قد ترك الطابع نسبة الروس لكي يعود الى الطابع الكلاسيكي ولم يعد هذا الفن المعماري محصورا في العاصمة بل انتشر في المقاطعات مع الاهتمام بالتقاليد الحملية - وتغير النحت على الخشب أو المعدن الى هندسة شاذة بينما التصوير بعد أن نبذ الموضوعات الدينية زاد في التطرف وحاول أن يعلو على الحيوانات المتوحشة •

والملاحظ في روسيا انه اذا كانت الصناعة الموجبة في أمكنها أن تعطى نتائج فعالة فان الفن الموجبة قد أفلس في ذلك ونتيجة ذلك ان من غير الممكن خلق فن بروليتارى مرة واحدة ، ويستحسن أن تعاد الى الفنانين المتحركة فيهم سياسيا حريتهم حتى تظهر العبقريات الفنية مثل بوشكين وتستوفينير وتولستوى •

والخلاصة ان الفن في روسيا كان يهدف الى أن يكون وسيلة للدعاية السياسية والعمل على هدم الرأسمالية وتصويرها غنيا في أشكال مذبذبة - وهو في نهاية الامر فن واقعى يختلف الاتباعى يكونه لا يخلو من جمال مظاهر الطبيعة انما الواقع في نظر الفن هو الواقع الشيوعى أى أن هذا الفن سار مع تيار الواقعى الذى كان سائدا في ذلك الوقت (١) •

وتطورت الواقعية في الفن نحو الطبيعية واهتمت بتحليل الانسان تحليلا دقيقا وكأنه نسيج من البدنية والمجتمع - باحثه عن أثر البيئة والوراثة - ونجد أميل زولا زعيم الطبيعيين يستعين بهذا المنهج فيما سماه « بالقصة التجريبية » وهو متأثر بذلك برأى تين Taine عن الوراثة والبيئة يصور فيها واقع الحياة والجماعات ولكن زولا في تحليله للأشخاص هو في صحيحه تحليل للمجتمع وتقصيه لألوان الشذوذ هو في نفس الوقت دراسة لحسبيات يراها المرء في بيئته مثال « قصة روجون ما كان كانت اطار للمجتمع الامبراطورى الفرنسى بعد مرور ثلاثين عاما من التطور الصناعى والاجتماعى قام فيها بتحليل أجزاء متكاملة في المجتمع الفرنسى Parnassien وأما تلك التيارات المتضادة في الفن والادب ظهر تيار جديد في فرنسا هو التيار Courant Parnassien في الادب في فرنسا في النصف الثانى من القرن التاسع عشر بزعامة لوكونت دى ليل ينادى فيه بهذه النزعة التى

(1) Louis Rèau, le Kealisma social (l'art Russe)

الجديدة التي ترد الشعر الى طبيعة كفن جميل هدفه الصور والاخيلة الجميلة في ذاتها وتأثر في ذلك بمذهب كانت الفلسفى - في علم الجمال والفن الذى كان يقوم على أن العمل الفنى ذو خصائص جوهرية - وكذلك مذهب هيجيل في العناية بالشكل الجمالى والصورة الشعرية المستقلة عن كل غاية اجتماعية أو خلقية (١) .

أما الفن للفن فهو امتداد للدعوة البرناسية ومن زعمائه الاول تيوفيل جونييه وبودليير ويقول جونييه بعنوان الفنان « نحن نعتقد فى استنقلال الفن لأنه عندنا عناية وكل فنان يجب أن يهدف الى غاية جمالية فقط . ولكن بالرغم من ذلك فان هذين المذهبيين لا يوعون الى الخروج عن الاخلاق بل كانوا فقط يحكمون على العمل الفنى من حيث القبح أو الجمال، لا من حيث الخير والشر (٢) .

وكان لرأى (تين) تأثير كبير على أصحاب هذين الاتجاهين فقد قال ليل زعيم البرناس « ان الشعر يتجاوب مع تاريخ العهود الاجتماعية والاحداث السياسية والافكار الدينية » .

ولا يخفى أن الجمال - اذا كان حقيقة موضوعية ينبغى مراعاة أن هناك ثلاث عوامل عند الحكم عليه هى - الموضوع الخارجى - والبيئة المحيطة - والنفس المدركة وهى نفس اجتماعية قبل كل شىء (٣) .

كذلك ظهرت فى نصف القرن التاسع عشر الاخير الرمزية الى جانب البرناسية والفن للفن وقامت هذه التيارات الثلاث لتعارض الرومانتيكية

(١) الادب والمجتمع ص ٩٦ الى ٩٨

(٢) محاضرات فى الادب ومذاهبه ص ٧٤

(٣) فلسفة الصور فى شعر البرناسيين د. محمد غنيمى هلال عام ١٩٥٩

باعتبارها وسيلة للتعبير عن المشاعر الشخصية. اعواطف الخاصة • وتقوم الرمزية على الحقيقة العلمية الثابتة - وترى هناك حقائق بشرية لا يمكن التعبير عنها بغير الاستعانة برموز تشير إليها دون أفصاح هذه الرموز قد تكون في الموسيقى أو الشعر أو الخرافة التي تتداولها الشعوب • وهي بذلك تلح إلى حقائق النفس والحياة وتدعو إلى خيرها وتنشد الحقيقة وتقص إلى ما تعنيه خلف الرموز •

الشاعر القصصي (ادجار الآبو) أول من نادى بالرمزية وهو أمريكي الأصل وأعجب به بوليفير وتأثر به ديوانه أزهار الشر "Fleurs du mal"

الفن في القرن العشرين (١) :

يعتبر الفن في هذا العصر في عهد انتقال إلى ليست له صفة ظاهرة بل نجد فيه نزعات متضاربة لفنون مختلفة - فهناك تيار الفنون الاجتماعية وهي الفنون التي تخدم القيم الأخلاقية والاجتماعية للمجتمع - وهي نوعين :
(أ) فنون نظرية

- فنون عقلية :

• العدالة والتضحية

- فنون دينية

• الاستشهاد في سبيل الله

(ب) فنون عملية : وهي فنون واقعية تعبر عن الطبيعة والمجتمع •

الفنون الاتباعية :

الفنان الاتباعي هو الذي يتدرج من تقليد القدماء حتى ينضج فنيا ويبتكر منتجات ذاتية وكثيرا ما يحدث قبل هذا النضوج الشخصي ومن

الفنون الاجتماعية فن جديد ظهر في فرنسا وغيرها هو فن الفنون الزخرفية للادوات المنزلية . وعلى الزجاج والاحجار الكريمة ، واشتهر بها الفنان لالايك ولاهيرس . . ، ولقد شجعت الحكومة الفرنسية هذا الفن باقامة متحف له .

(ج) ومن مظاهر الفن في القرن العشرين سيادة المركزية الفنية أى تركر الانتاج الفنى فى العواصم الكبرى مما أضعف الفنون الريفية وأصبح للفن فى هذه العواصم المسحة الدولية التى تدفع كل فنان أن يمثل ذاته فى فنه ولهذا سادت الروح الفردية فى الفن . ويمثل هذا التيار الفردى « المستقلين فى الفن » وهم فنانون لا يقيمون للتراث الفنى الاجتماعى وزنا ولا يخدمون الماضى . ويسخرون كذلك من الحاضر ولهذا فقد ضعفت الروح القومية العامة والخاصة فى بعض المقاطعات وتقلبت الروح الفردية – التى تسمى وراء المادية ولذلك لا يهتم الفنان بالانتقان – مما قضى على روح الاخلاق والفضيلة – وقد ساعد على ظهور هذا الفساد الفنى والاخلاقى شيهين جديدين بين الفنان والجمهور هما تجار الفن من ناحية والصحافة المفرضة من ناحية أخرى – بحيث أصبح الفن الحديث تجارة قبل كل شىء .

التجارة فى الفن الحديث :

فنان ينتج بسرعة وتاجر يشتري ويقيم دعاية للكسب أى أن الانتاج الفنى يبنى الكم والكيف .

المحدثون من أهل الفن :

أصحاب التعبير والرمز وأشهرهم سيزان وفانجوج وجوجان .
آرائهم : ان الفن تعبير شخصى نظير الاشياء كى تبدو للفنان وليس حسب طبيعتها .

أصحاب التركيب ويميلون الى الاشكال الهندسية فى الرسم والتصوير
آرائهم : تفهم فن شخصى لا يبحث التعمق عن الاصول الفعلية وانما
يبقى سبيلا ميسورا للتعبير الفنى ولهذا سُمى بفن الكسل والتراخى لأنه
ينتج أشباحا مبهما لا صنعة فيها ومنهم « بيكاسو » •

السيريين :

كانت من آثار التدمير النفسى والخلقى التى نتج عن الحرب العالمية
الاولى • مما جعل القيم الانسانية تترزع ، والغرائز المكبوتة تتحرر من
من مقالها الى رحابة الانطلاق مرة المجتمع وتعارف عليه الافراد من قيم
خلقية واجتماعية وقد ساعد هذا على ظهور تيار السيريالية ما فوق الواقع
Surréalisme وهو الذى يتحلل من واقع الحياة الواعية - ويهدف
هذا المذهب فى الفن الى ترك الفنان لسليقته الخاصة ونزعاته الفطرية دون
تعهد أو انتقال ولذلك كانت الالية فى الفن هى أهم أسسه بحيث أصبح الفن
اخراجا لما فى النفس البشرية دون تمييز أو تبديل •

ان الدافع الفنى الاصيل فى نظر أصحاب هذا المذهب هو الدافع
الدفين الذى ينبعث حرا من الكبت النفسى وساعد هذا الفن على ظهور الفن
الشيوعى كما سبق لأنه يدل على افساد الفن الاتباعى عامة والفن
الفرنسى خاصة •

من هؤلاء الفنانين بيكامبا وشيريكو فربارسى •• وديشان فى نيويورك
الذى رسم الجيوكندا ولها شارب ضخم للسخرية من الفن الاتباعى
القديم^(١) •

(١) المصدر السابق ص ٩٧

وظهر هذا التيار في الادب على يد (أندريه بريتون) يحاول به الثورة على المبادئ المتوارثة في المجتمع أو في عالم الفكر والهرب وهو في سبيل ذلك ينزع الى كل صورة غريبة •

وهذا التيار يغفل القيم الجمالية - هذا التيار نأخذه مثلا جديرا بالاعتبار ولن يفعل المجتمع ومشاكله أو يحاول الهروب منه • فلو أن هذا التيار وجد صدق في المجتمع وتجاوبا مع جمهور يحبذه لعاش واتخذ مكانا له بجانب المذاهب الاخرى واستحق أن ينتشر في بلاد العالم فلا يولد ويموت في بلد واحد هو فرنسا •

الوجودية في الفن :

بدأت مع الفيلسوف الدانمركي (كيركجورد) الذي كان ينادى بالشخصية الانسانية المندمجة في جماعة لأن الفرد لا شخصية له وليست له وليست له مقومات ذاتية الا عندما يندمج تحت لواء جماعى كما كان ينادى بالحقيقة الانسانية الدالة على الموجود أو الانسان الفرد ••• والوجود يعنى عنده الاختيار والاختيار معناه ، الحرية فالانسان ولد حرا وينبغى أن يظل حرا وان انتابه القلق والالم والعذاب فهذا سبيله الى الوجود وتدفتت هذه النظرية وغيرها من الدول •

وقد مثل هذا التيار في الادب سارتير فمسرحياته كلها تنزع الى وضع الانسان في موقف معين وتتركه حرا يختار طريقه ويرضى بنتائج سلوكه ان سلبا أو ايجابا ومسرحيات « الايدى القذرة » والذباب والموسم الفاضلة لسارتر ••• وغيرها تنطق كلها بذلك الى جانب اتخاذها مواقف اجتماعية مشرفة والانتصار لقضايا انسانية عامة كقضية الملونين في الموسم الفاضلة وقضية حرية الشعوب في الايدى القذرة^(١) •

(١) ما الادب ؟ سارتر ترجمة محمد غنيمي هلال ص ٤٧

ومن فناني العصر الحديث : في التصوير بيكاسو Picasso
وجان كروتى Jean Crotti ومارك شاجال Marc Chagal وجورج براك
وهو فنان تجريدي ، وشيريكو Giorgio di Chirico ومارسيل دشان
Marcel Ducham وفي النقش Gravure كل من شارليوا ودارتى وموروا
Luc Albert Moreau, J. A. Daragnés : Charles Despiau, Auguste Rodin
وفي النحت sculplur رودان ووالث ديزنى في الرسم والتصوير •

وأخيرا فن تخطيط المدن : لقد ظهر في القرن العشرين ويرتكز على
تطور الاختراعات في صنع الآلات الحديثة وهو نظام يريد قلب نظام المدن
القديمة رأسا على عقب ويرى لوكوبيزيه انه يجب هدم وسط المدن واقامة
مدن كبيرة مكانها • ويعد هذا العرض للتيارات الفنية والادبية فاننا نرى
مدى اجتماعيتها وعدم اغفالها للمجتمع وكأنها بذلك حاجات اجتماعية تتطلب
روح العصر فتكون خير معبر عنها وهكذا نشأت الرومانسية والواقعية
والمجودية وغيرها والتقلبات الاجتماعية والتقدم •

فالظاهرة الجمالية تؤثر في الاحساس والشعور وتتأثر برأى المجتمع
الذى يصدر الاحكام الجمالية ويحكم على الشئ بالقبح أو بالجمال •
بالاضافة الى شعور الفنان الذى ينطبع على أعماله الفنية •

وهناك تصنيفات عدة وضعها الكتاب الفنيين مثل تصنيف شوبنهاور
وكانت Kant وجيو Guyau وشارل لالو Charles lalo وسوريو
Souráúu وأخيرا تصنيف لاسباكس ويعتبر تصنيفه أهمها جميعا •

فالفن هو الوسيلة الدائمة للتعبير عما بداخلنا وبالتالي هو المعبر عن
الجمال الذى تسمو اليه الانسانية •

فالقصة بين المجتمع والفن واضحة اذن لأن الفن له أهمية كبرى للمجتمع وتأثير بالغ على أفراد المجتمع فهو يخلق روح التضامن عن طريق الاعجاب بالاعمال الفنية ، وانتشار هذا الاعجاب بين الناس • وهناك عدة وظائف للفن في المجتمع وهي وظائف اجتماعية وتربوية وسياسية وعلمية ودعوية ومنطقية ، وقد اختلفت آراء الكتاب الفنيين في صلة الفن بالمجتمع وصلته بالبيئة وكيف أن العمل الفني مرتبط بهذه البيئة سواء كانت بيئة اجتماعية أو جغرافية ثم عن واجب الفنان تجاه العمل الفني • وقد رأينا العوامل الاجتماعية التي تؤثر في الفن بالإضافة الى المواهب الفنية والادبية والروح الشعبية التي تعتبر منبع للفن يستقى منه مادته الموضوعية •

وبما أن الفن بهذه الأهمية الاجتماعية فهناك قوانين تحكم تطوره ، وتطور أشكاله الفنية فالفن والادب صورة للمجتمع الذي يظهر فيه يعبران عنه وعن آماله وأفكاره وأحلامه • وعن مدى التقدم الاجتماعي والثقافي في هذا المجتمع •

وللفن دور في التطور الفكري والاجتماعي في المجتمع فهو يتأثر بالظروف الاجتماعية السائدة وبمستوى الحضارة في كل عصر على حدة، فيكون له طابعه الذاتي المميز وصفاته الأساسية التي تجعله يختلف عنه في أي عصر آخر •

فالفن في تطوره خضع لعوامل اجتماعية متباينة فالفن البدائي تأثر بالدين والسحر ، والفن المصري القديم تأثر بالدين والسياسة ، والفن اليوناني تأثر بالسياسة ونظام الطبقات ، والفن الروماني تأثر بالسياسة والحرب ، والفن المسيحي والاسلامي بالدين ، والفن في عصر النهضة بثورة التحرر الفكري ، الثورة الصناعية ، الثورة الفرنسية التي طورت الفن والفكر الفرنسي ، وفي القرن العشرين تأثر بالسياسة ونذكر أيضا قيام

الثورة الروسية في هذا القرن مما كان له أثر على الفن هناك كذلك تقدم الاختراعات الآلية . أى أن العاملين الاجتماعيين الاساسيين في هذا التطور هما الدين والسياسة وربما سيظل أثرهما يوجه سير الفنون في المستقبل فالدول العظمى في الوقت الحاضر تحترم الاديان مثل انجلترا التي تمنع قانونيا أن يتناول الفن رجال الدين بالنقد اللاذع ، حتى روسيا التي ألقت الدين اضطرت الى العودة اليه ، وعاد للفن الدينى أثره وتأثيره داخل الكنائس . فضلا عن دور الفن في هذه الدول في شئون الدعاية داخليا وخارجيا ، فاهتمت بالاشراف على المدارس الفنية ، وعملت على تبادل الآثار الفنية مع الدول الاجنبية كذلك تبادل أساتذة الفن بين معاهد العلم وخارجها .

وفي النهاية عرفنا تلك المذاهب الفنية والادبية التي ظهرت وكانت نتاجا لتطور اجتماعى وحضارى تأثر به الفن في كل عصر ، بالاضافة الى أثر هذه المذاهب الفنية في توجيه الفنون والآداب كل في عصره . وهذه المذاهب هي :

الكلاسيكية التي ظهرت في القرن السابع عشر ، والرومانتيكية التي ظهرت في القرن التاسع عشر ، والواقعية التي كانت ثورة على الرومانتيكية، ثم البرناسية التي ظهرت في النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ومذهب الفن للفن الى كان امتدادا للدعوة البرناسية .

أما في القرن العشرين فنلاحظ ظهور مذاهب جديدة مثل السيريالية والوجودية ، وهذه كلها مذاهب فنية أثرت في سير الفنون خلال العصور . وأخيرا الفن في المجتمع الاشتراكي الجديد .

فالفن أصبح المعبر عن القيم الجديدة في مجتمعنا ، واجب الفنان هو ضرورة الالتزام بالمبادئ الاشتراكية على نشرها بين أفراد المجتمع .

والواقع أن الفن بعد ثورة ١٩٥٢ قد حصل على مكاسب كثيرة لم يعهدها من قبل فقد تعهدته الدولة بالرعاية والتوجيه - ويمكن من واقع التطور أن نحدد الاصول الراسخة التي أصبح يستند اليها الفن والادب في مفهومنا اليوم ، وفي المستقبل •

فقد أصبح للفن والادب مفهوما مغايرا عما سبق ، فهو فن وأدب ثورى له فاعليته وقيمه لا كانتاج فكرى يأخذ طابعا انعزاليا يهيم فيه الفنان في متاهات نفسه ، أو سلعة ترفيهية خاصة بالقادرين على الاستمتاع به ، وانما هو انتاج مادى يرتبط كل الارتباط بواقع الحياة ، ويسعى للكشف عن حقيقة العلاقات بين الناس فيها بغية تغييرها واعادة بنائها من جديد •

أى أن للفن والادب دورا بناءا في تكوين المجتمع كأى عامل آخر سياسى أو اقتصادى •• وقد رأينا منذ قليل خلال عرضنا التاريخى للفن والادب أنه فى كل عصر وفى كل مجتمع كان الفن يحمل رسالة التقدم ويقف الى جانب جموع البشر فى تطلعها الدائب نحو حياة أفضل ، فما من أديب أو فنان أنبته عصر أو وطن لعاش أو بقى له أثر الا وأقامه على تحقيق هذه الرسالة الجوهرية بهذا نطق أرسطو ، وتغنى المعرى ولحن بتهوفن ، ورسم بيكاسو وهذا المفهوم الجوهرى للفن والادب أوضحه الواقع فى بلدنا •

ولا يخفى علينا أن المجتمع الاشتراكى له قيمه ومثله التى تختلف كلية عن القيم والاخلاقيات والمثل التى تعيش عليها المجتمعات الرأسمالية لأن هذه القيم هى نتاج لعلاقات اجتماعية جديدة • وقد ظهرت هذه القيم فى الاعمال الادبية والفنية الجديدة •

وقد وضعت الدولة امكانياتها فى خدمة الفن والادب ، بحيث اتسعت فاعلية الدور الذى يقوم به الفنان والاديب لا كدور ايجابى ، ولا كدور طليعى ، بل كبناء مباشر يساهم بقلمه وريشته فى اقامة مسر(الحياة الجديدة

وبهذا ينتقل التزام الادب والفن من مجرد الوقوف عند حدود
الاهداف الفنية والالتزامات الادبية الى أن يكون القوة الخلاقية والقوة
الملهمة في دفع عملية التطور لأنه في ارتباطه بالجموع الشعبية التي تقوم
على أكتافها وتنبع من نضالها كافة القيم المادية • يصبح بالضرورة قوة
مادية لها فاعليتها في تغيير الحياة وانها منها • ولأن الثورة بطبيعتها « عمل
شعبي وتقدمي » فان ارتباط الادب والفن بجموع الشعب فيما يصوره عنها
ولها • هو الاصل الذي يكشف عنه الفكر في تحديده الراسخ لمفهوم الادب
والفن في ظل المستقبل من أجل أبنائه •

Obbeikandi.com

أهم المراجع العربية

- ١ - دكتور حسن ابراهيم حسن
« تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » الطبعة
الثامنة الجزء الاول سنة ١٩٥٣ •
- ٢ - دكتور سامى الدروبي
« المجلد فى فلسفة الفن » ترجمة عن كرونشه
- ٣ - دكتور عبد العزيز عزت
« الفن وعلم الاجتماع الجمالى » الطبعة الثانية سنة ١٩٥٥
- ٤ - دكتور محمد على أبو ريان
« فلسفة الجمال » الطبعة الاولى ونشأة الفنون الجميلة سنة ١٩٦٤ •
- ٥ - محمد كمال الدين يوسف
« الادب والمجتمع » مقدمة ودراسة يحيى حقى سنة ١٩٦٢ •
- ٦ - دكتور محمد صقر خفاجه
« تاريخ الادب اليونانى » مكتبة النهضة •
- ٧ - مجلة الفكر المعاصر
العدد الثالث عشر ، مارس سنة ١٩٦٦

- 1 — **André Malraux :** ...
Dialogue avec le visible.
- 2 — **Adolphe Boscot :**
Entretien sur la Beauté.
- 3 — **Culvier :**
L'homme et la musique; Esthétique musicale.
- 4 — **Gaston Rageot :**
La Beauté; Essai d'esthétique historique.
- 5 — **Georges Karcais :**
L'art de l'Islam.
- 6 — **Henry Martin :**
L'art égyptien.
- 7 — **Louis Réau :**
 - 1) L'art russe.
 - 2) Les arts plastiques.
- 8 — **A.Malet & J.Isaac :**
 - 1) Le Moyen-Age jusqu'à la guerre de cent ans - Hachette.

L'Année Sociologique :

- 1 — **Ad.Baratono :**
Sociologie esthétique 1933
- 2 — **Ch.lalo :**
Note sur l'esthétique 1933 inex
L'expression de la vie dans l'art 1933 pifo
- 3 — **M.Haernes :**
Préhistoire de l'art figuré en Europe depuis
les origines jusque vers 500 av. J. C. T.111.
- 4 — **M. Hira :**
The origin of art 1900
- 5 — **M. Ouvré :**
Les formes littéraires de la pensée grecque 1900 pinse
- 6 — **Raphael :**
Trois Etudes sur la société de l'art 1933

L'Encyclopédie Française :

1 — André Maurois :

Le rôle de l'art dans la vie de l'individu.

2 — “L'art et la société” :

* L'art est-il indépendant du milieu.

* Le devoir de l'artiste.

* La collectivité et les lois de l'évolution artistique.

* Les principaux facteurs sociaux.

* L'évolution spécifique des formes d'art.

* La loi des trois états esthétiques.

3 — Elie Faure :

Les influences géographiques.

* L'art et le milieu.

* Les caractères essentiels.

* Influences des formes sociales.

4 — Pierre Hamp :

La littérature image de la société.

* L'écrivain social et l'écrivain d'enquête.

5 — Paul Valéry :

L'introduction.